جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

تنوع وجه الشبه في التشبيهات المركبة للماء في القرآن

الدكتور

عائض مبارك أحمد الحربي

أستاذ البلاغة المساعد - قسم اللغة العربية
كلية التربية والآداب- جامعة تبوك
المملكة العربية السعودية

العدد الرابع والعشرون
للعام ١٤٤١هـ / ٢٠٢٠م
الجزء الثامن

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠٢٠م

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

بسم الله الرحمن الرحيم

تنوع وجه الشبه في التشبيهات المركبة للماء في القرآن

عائض مبارك الحربي

قسم البلاغة - قسم اللغة العربية ـ كلية التربية والآداب- جامعة تبوك ـ المملكة العربية السعودية

البريد الإلكتروني: mailto:Dr.alharbi1435@gmail.com

الملخص

تسعى هذه الدراسة للكشف عن وجه طريف من وجوه التشبيهات القرآنية، بتركيز النظر والكشف عن ركن مهم من أركانه وهو وجه الشبه بدراسة تنوعه مع كون المشبه به واحدا؛ وهي ظاهرة بلاغية جمالية لا تقف عند (الماء) نموذج الدراسة ، بل يمكن أن تفتح الباب لتناول غيره من النماذج.

وقد تم تقسيم هذا البحث إلى مقدمة، وتمهيد، وخمسة مباحث، والخاتمة، وثبت المصادر والمراجع.

ففي التمهيد: تناولت:

- وجه الشبه في الدرس البلاغي

أما المباحث فاقتضت طبيعة البحث أن يقسم إلى خمسة مباحث.

المبحث الأول: وجه الشبه بين المنافقين والماء.

المبحث الثاني: وجه الشبه بين الحياة الدنيا والماء.

المبحث الثالث: وجه الشبه بين الحق والباطل والماء.

المبحث الرابع: وجه الشبه بين أعمال الكفار والماء.

المبحث الخامس: وجه الشبه بين عجز الأولياء عن إجابة الدعاء والماء.

ثم جاءت الخاتمة وثبت بالمصادر والمراجع.

الكلمات المفتاحية : تنوع وجه الشبه ، التشبيهات المركبة ، الماء في القرآن ، تشبيه الماء .

ISSN 2356-9050 الترقيم الدولي
ISSN 2636 - 316X الترقيم الدولي الإلكتروني

حولية كلية اللغة العربية بجرجا
مجلة علمية محكمة

The similarities varied in the complex analogies of water in the Qur'an

Ayed Mubarak Al-Harbi
Rhetoric Department - Department of Arabic Language - College of Education and Arts - University of Tabuk - Kingdom of Saudi Arabia
Email: mailto:Dr.alharbi1435@gmail.com

Abstract

This study aims to reveal an exciting aspect of the Quranic similes by focusing attention and revealing an essential aspect of its pillars, which is the studying of the diversity of the similarities even though the likeness is one; It is an aesthetic, rhetorical phenomenon that does not stop at the model of the study (water), but rather it can open the door to address other models.

This study has been divided into an introduction, a preface, five sections, a conclusion, and the table of sources and references.

In the preface: I dealt with the Similarities in rhetorical studying. The nature of the research required that it be divided into five sections:

The first section is the similarity between the hypocrites and the water.

The second section is the similarity between this life and the water.

The third section is the similarity between the right and the null and the water.

The fourth section is the similarity between the Infidels' actions and the water.

The fifth section is the similarity between the Awliya's disability to answer the supplication and the water.

Then the conclusion came and the table of the sources and references.

Keywords : Similarities varied, compound analogies, water in the Qur'an, water analogy.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فالتشبيه من فنون التعبير البليغ العليا، وأساليب القرآن البينة ، له فوائد عظيمة من أجلها إيضاح المعاني بإيجاز بديع، تأنس النفس له، وهو كنز من كنوز البلاغة.

ولأهميته ومكانته أفردت له الدراسات العديدة والمتنوعة، حتى إن الباحث ليقف طويلا عند الوهلة الأولى إذا ما أراد أن يبحث مسألة لها سبب وصلة به.

ويعد وجه الشبه من أركان التشبيه ومقاصده الكبرى التي أقيم لأجلها، ومع قيمته العلمية وأسراره البلاغية إلا أنه لم ينل من التحليل والتأمل ما نالته بقية أركان التشبيه الأخرى وأنواعه.

وسأتناول في هذا البحث ظاهرة قرآنية جديرة بالوقوف والتأمل ألا وهي :" تنوع وجه الشبه في التشبيهات المركبة للماء في القرآن"

وهنا أنبه إلى مسألة مهمة، وهي أن جميع هذه التشبيهات التي تناولتها الدراسة هي من باب التشبيهات المركبة إلا أننا حين نتأمل فإننا نجد أن الماء عنصر مهم من عناصر التشبيه فيها، بل قد يكون عماد التشبيه قائما على وجوده، كما سيتبين ذلك لاحقا.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وقد ورد الماء في كثير من المواضع، بدلالات وسياقات متنوعة، يصعب حصرها هنا، والذي يهمنا في هذا البحث هو التركيز على وجوده مشبها به ، دون تعدي ذلك إلى غيره.

وتأتي أهمية الموضوع في عدة نقاط منها:

١- الكشف عن أسرار عمق البيان القرآني وملامحه البلاغية الدقيقة.

٢- قلة الدراسات التي تناولت وجه الشبه القرآني ودراسة ظواهره.

٣- توسيع دائرة البحث في التشبيهات القرآنية والابتكار والجدة في تناول قضاياه وأسراره.

٤- تنوع الأغراض والسياقات التي ذكر فيها الماء.

وحين نستعرض الدراسات التي تناولت الموضوع فيمكن تقسيمها على النحو الآتي:

أ- دراسات تناولت التشبيهات القرآنية، وهي أكثر من أن تحصى في هذا المقام، وبعضها قد تناول بعض الشواهد في هذا البحث دون أن تقف على فكرة البحث بشيء من الإشارة أو التفصيل.

ب-دراسات بلاغية تناولت (الماء في القرآن) ضمن مباحثها دون أن تشير أو تقف على معالم هذه الفكرة أو تقارن بين أساليبها المتنوعة ومن تلك الدراسات دراسة بعنوان " أثر السياق في اصطفاء الأساليب" للدكتور إبراهيم الهدهد.

ج- دراسات تناولت وجه الشبه ومن أبرزها وأقدمها رسالة بعنوان "وجه الشبه في القرآن الكريم تنوعاته وإيحاءاته – من أول البقرة إلى آخر

سورة الإسراء" للدكتور ناصر بن مسفر الزهراني، وقد قسم فصول دراسته إلى أربعة فصول مقسمة على أقسام وجه الشبه عند البلاغيين، متتبعا الآيات التي ورد فيها التشبيه دون تفصيل أو مقارنة بين سياقاتها وتنوع موارد وجه الشبه فيها، ودون الإشارة إلى ما تمت دراسته في هذا البحث.

والمنهج الذي اعتمده هذا البحث هو المنهج الوصفي التحليلي من خلال وصف ظاهرة تنوع أوجه الشبه في التشبيهات المركبة للماء ثم تحليلها وتوضيحها وصولا إلى تحقيق الأهداف المرجوة .

والبحث الذي نحن بصدد دراسته قسم إلى مقدمة، وتمهيد، وخمسة مباحث، وخاتمة، وثبت المصادر والمراجع.

في **المقدمة** :تناولت أهمية هذا البحث ، ومنهجه ، والدراسات السابقة، ومنهج الدراسة، وهيكل البحث.

وفي **التمهيد**: تناولت: وجه الشبه في الدرس البلاغي

أما المباحث فاقتضت طبيعة البحث أن يقسم إلى خمسة مباحث.

- **المبحث الأول**: وجه الشبه بين المنافقين والماء.
- **المبحث الثاني**: وجه الشبه بين الحياة الدنيا والماء.
- **المبحث الثالث**: وجه الشبه بين الحق والباطل والماء.
- **المبحث الرابع**: وجه الشبه بين أعمال الكفار والماء.
- **المبحث الخامس**: وجه الشبه بين عجز الأولياء عن إجابة الدعاء والماء.
- **الخاتمة**: واشتملت على أهم النتائج التي توصل إليها البحث.
- **ثبت المصادر والمراجع**.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

التمهيد

للتشبيه أثره البالغ في تصوير المعاني ، وهو من أهم الطرق الموصلة إلى المعاني المحتجبة في الأشياء، فهو يبرز هذه المعاني الخفية ويكشف عنها ويصورها للأفهام، وذلك حين يعرضها في صور محسوسة قريبة من الإدراك والفهم.

وللتشبيه مكانته العريقة عند العرب، يقول قدامه:"... وأما التشبيه فهو من أشرف كلام العرب، وفيه تكون الفطنة، والبراعة عندهم، وكلما كان المشبه (بالكسر) منهم في تشبيهه ألطف كان بالشعر أعرف، وكلما كان بالمعنى أسبق كان بالحذق أليق" [(١)].ويقول العسكري: "وقد جاء عن القدماء وأهل الجاهلية من كل جيل ما يستدل به على شرفه وفضله وموقعه من البلاغة بكل لسان "[(٢)].

ووجه الشبه من أبرز أركان التشبيه؛ فلولاه ماكان التشبيه موجودا، فهو كالحبل الرابط بين الطرفين، إن أختل أو قطع انحل عقده، وطوي ذكره، يقول د. ناصر الزهراني: "ولا غرو فإن وجه الشبه هو الميزان الذي يوزن به التشبيه ويفاضل على أساسه بين صورة وصورة، وما من حسن حازه التشبيه، أو قبح حل به، إلا كان المعيار فيه وجه الشبه؛ لأنه روح التشبيه السارية بين عناصره ومقوماته"[(٣)] .

---

(١) – نقد النثر٥٨ .

(٢) – كتاب الصناعتين ٢٣١.

(٣) – وجه الشبه في القرآن الكريم تنوعاته وإيحاءاته٢٠.

وقد عني العلماء قديما وحديثا بهذا الركن المهم من أركان التشبيه، فحدوا حدوده، وسبروا أغوار تقسيماته، وقد وقع الخلاف بينهم في بعض مسائله.

ومن أوائل العلماء الذين أشاروا إلى تعريفه قدامة بن جعفر؛ في طيات حديثه عن التشبيه وذلك بقوله:" التشبيه إنما يقع بين شيئين بينهما اشتراك في معان تعمهما ويوصفان بها"(١) .

قوله:" بينهما اشتراك في معان..." إشارة واضحة لوجه الشبه في التشبيه، وهذه الإشارة سنجدها بوضوح عند المتأخرين في تعريفهم له.

وحين ننتقل إلى الرماني ونقف عند كلامه عن وجه الشبه فإننا نلمح معنى زائدا، يتعدى الكلام عنده عن معنى الوجه إلى تقسيماته؛ وذلك في قوله: "التشبيه هو العقد على أن أجد الشيئين يسد مسد الآخر من حس أو عقل"(٢).

فقوله: "من حس أو عقل" فيه إشارة واضحة لما استقر عند المتأخرين البلاغيين من تقسيم لوجه الشبه في كتبهم.

أما السكاكي فقد صرح بذكر هذا الركن، وأبان عن وجهه اللثام بوضوح تام؛ يقول عنه:" لا يخفى عليك أن التشيه مستدع طرفين: مشبها ومشبها به، واشتركا بينهما من وجه وافترقا من وجه آخر..." (٣).

---

(١) – نقد الشعر ٣٦.

(٢) – النكت في إعجاز القرآن –ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن– ٨٠.

(٣) – مفتاح العلوم١٤١.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وقد استقر كلام البلاغيين المتأخرين على ماذكره الخطيب القزويني، دون أن يتجاوزه إلى ماسواه، وذلك حينما عرفه بقوله:" هو المعنى الذي يشترك فيه الطرفان تحقيقا أو تخييلا"(١).

وقد تلقف شراح التلخيص هذا التعريف بعين الرضا، وهذا مانجده ظاهرا عند العلامة التفتازاني بقوله عنه:" هو الصفة أو الصفات التي يشترك فيها المشبه والمشبه به تحقيقا أو تخييلا"(٢). وقد سار غيره مساره.

وإذا ذهب التشبيه الاصطلاحي وحلت الاستعارة محله، فإن هذا الوصف يلازم الاستعارة، سواء أكانت تصريحية أم مكنية، مفردة أم مركبة، ولكنه حينئذ يعبر عنه بلفظ " الجامع" بعد أن كان في التشبيه الاصطلاحي يسمى "وجها".

من أوجه عناية البلاغيين واهتمامهم بوجه الشبه، حرصهم على تقسيماته وتنوع أوجه مجيئه ومراعاة اعتباراته المختلفة؛ وليس هذا البحث مظنة تقسيمات وجه الشبه وتنوع موارده، إلا أن الإشارة إليها مهمة جدا(٣).

ومن أهم أقسام وجه الشبه التي ذكره العلماء تقسيمه إلى وجه مفرد، وآخر مركب؛ ومعنى كونه مفردا أن يكون معنى واحدا وهذا الوجه (المفرد) يتنوع نوعين: حسي ومعنوي.

---

(١) -الإيضاح١٤٢.

(٢) -المطول٣١٤.

(٣) – ومنها التحقيقي والتخييلي، والقريب والبعيد ،ينظر في هذه التقسيمات وتعريفاتها، شروح التلخيص٣/٤٣٠، الإيضاح١٤٢.

أما المركب فهو ما كان هيئة أو صورة منتزعة من أمـــرين فـــأكثر. وهو كالمفرد نوعان: حسي ومعنوي.

ولطرفي التشبيه أثرهما في بيان وجه الشبه وتحديد ماهيته فـــــ" همـــا الأصل والعمدة لقوتهما في التركيب وفي الخارج، أما قوتهما علـــى الوجـــه فلأنهما معروضان للوجه القائم بهما ، والمعروض أقوى من العارض؛ لأنه موصوف والوصف تابعه؛ولأنه لا بد من ذكرهما أوأحدهما بخلاف الوجه"(١).

والغالب أن وجه الشبه يكون في المشبه به أقوى وأشهر منه فـــي المشبه؛ لأن أغلب القصد من التشبيه هو إلحاق ناقص بزائد فـــي الصـــفة المطلوبة، يقول السكاكي:"المشبه به حقه أن يكون أعرف بجهة التشبيه من المشبه، وأخص بها، وأقوى حالا معها"(٢).

وليس الأمر على إطلاقه، فقد يكون وجه الشبه في المشبه أقوى منه في المشبه به، ومن ذلك قوله تعالى:﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌ ﴾ [النور:٣٥] فلا نور أعلى من نوره ولا مناسبة بينه وبين المشكاة في قوته ، ولكنه جاء كذلك تقريبا لأذهان المخاطبين (٣) .

وقد لحظ البلاغيون أن عاقدي التشبيه قد يعمدون – أحيانا– إلى جعل المشبه في كلامهم مشبها به ، والعكس، وذلك لما رأوه من أن وجه الشـــبه يكون أقوى وأعرف في االمشبه به، فأرادوا أن يشعروا المتلقي أن وجـــود الشبه في المشبه أقوى وأظهر من وجوده في المشبه به، وهذا النوع مـــن التشبيه أطلق عليه البيانيون (التشبيه المقلوب)

(١) – مواهب الفتاح ٢/٣٥.
(٢) – مفتاح العلوم ٣٤٥.
(٣) – مواهب الفتاح٢/١٢٩.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

أما إذا تساوى طرفا التشبيه في جهته، فالأفضل ترك التشبيه والعدول إلى الحكم بالتشابه، ليكون كل من الطرفين مشبها ومشبها به، احترازا من ترجيح أحد المتساويين على الآخر، ولا يكون في وجه الشبه زيادة اختصاص بأحد الطرفين(١).

ومن ناحية أخرى فإن إفراد طرفي التشبيه وتركيبهما له أثره في وجه الشبه، فمتى كان الطرفان مركبين أو مقييدين كان الوجه مركبا ، ولو تقييدا اعتباريا ليتأتى انتزاع الهيئة التي قصد أن تكون وجه الشبه (٢).

وبالعموم فإن وجه الشبه كلما كان غائبا يحتاج في إدراكه إلى إعمال للفكر، وشغل للذهن ، وتنشيط للعقل ، وإثارة للحس ، فالشيء إذا نيل بعد طلب وتفكير طويل، كان أوقع في النفس وأدعى إلى تأثرها واهتزازها، وكان أرسخ في الذهن وأثبت ؛ لأن المحصول بعد النقب أعز من المنساق بلا طلب، والنفس إذا وقفت على تمام الشيء المقصود لم يبق لها شوق إليه ،أما إذا حصل لها معرفته من بعض الوجوه دون البعض ،فإن هذا يقودها ويدفعها إلى معرفة ماليس بمعلوم فيحصل لها بسبب علمها بالقدر الذي علمته لذه ،وتحققت لها متعة اكتشاف المستور، يقول عبد القاهر: "ومن المركوز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه ، ومعاناة الحنين نحوه، كان نيله أحلى ، وبالمزية أولى، فكان موقعه في النفس أجل وألطف ، وكانت به أضن وأشغف"(٣).

---

(١) – وردت بعض الشواهد على ذلك في معاهد التنصيص على شواهد التلخيص٢/ ٥٩، وبغية الإيضاح ٣/ ٤٢١، ٤٢٢.

(٢) – مواهب الفتاح ٢/ ٨٤، وجواهر البلاغة ٢٢٤.

(٣) – أسرار البلاغة ١٣٩.

المبحث الأول

وجه الشبه بين المنافقين والماء

يعد النفاق من الصفات المذمومة التي تكرر ذكرها في القرآن وقد ظهر المنافقون في عصر النبي – صلى الله عليه وسلم- ولولا فضح القرآن لهم وبيان صفاتهم للنبي وصحابته ما كان ليعرفهم .

وقد كشف القرآن الكريم عن كثير من صفاتهم في آيات متفرقة ، سنقف منها على الجزء الذي له صلة وثيقة بموضوع البحث .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾[البقرة:١٧-٢٠].

عند تأمل هذه الآيات نجد أن القرآن الكريم لما بين في الآيات السابقة حقيقة صفات المنافقين وذكر بعضا منها، ضرب لهم مثلين ،زيادة في البيان والكشف [(١)].

الأول في قول تعالى:﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾

والذي يعنينا في هذه الآيات المثل الثاني والذي بدايته من قوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ إلى نهاية الآية بعدها في قوله:﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

---

(١) – نظم الدرر ١١٨/١.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وترى أن أول ما افتتحت به الآية هو قوله:﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ و(أو) هذه التي جاءت في صدر الآية اختلف المفسرون في معناها، فقال الطبري: إنها بمعنى الواو[١] فالتقدير: (وكصيب) ومن ذلك قول جرير:

نال الخلافة أو كانت له قدرا كما أتى ربه موسى على قدر[٢].

وذهب الزمخشري أن (أو) في الآية يصح أن تكون بمعنى الواو، أو بمعنى التخيير إذ يقول: "﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ ﴾ معناه أن كيفية قصة المنافقين مشبهة لكيفيتي هاتين القصتين ، وأن القصتين سواء في استقلال كل واحدة منها بوجه التمثيل، فبأيتهما مثلتها فأنت مصيب، وإن مثلتها بهما جميعا فكذلك"[٣].

وقيل: إنها للتنويع فالمثل الناري ضربه الله لنوع من المنافقين، وهم الخلص منهم والمثل المائي ضربه الله لنوع آخر من المنافقين غير الأول؛ وهم المترددون ، تارة يظهر لهم لمع من الإيمان وتارة يخبو [٤].

ولا تعارض بين القولين بل هما متفقان في الجملة.

والصيب :هو المطر الشديد الانصباب ، من صاب يصوب جاء في اللسان: "صَابَ المطر صَوْباً ، وانْصابَ: كلاهما انْصَبَّ انصب. ومطر صَوْبٌ وصَيِّبٌ وصَيُّوبٌ"[٥].

---

(١) – جامع البيان في تأويل القرآن ١/ ٣٣٦.
(٢) – ديوانه: ٢١١.
(٣) – الكشاف ١/ ٨١.
(٤) – تفسير القرآن العظيم ١٨٩/١ ، و التحرير والتنوير ٣١٦/١، تفسير المنار ١٣٩/١.
(٥) – لسان العرب ، مادة (صوب) ١/ ٥٣٤.

وجاء في المفردات: "والصَّوْبُ: الإِصَابَ: يقال: صَابَهُ وأَصَابَهُ، وجُعل الصَّوْب لنزول المطر إذا كان بقدر ما ينفع، وإلى هذا القدر من المطر أشار بقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ [المؤمنون:١٨]، والصَّيِّب: السّحابُ المختصّ بالصَّوْب، وهو فيعل من: صَابَ يَصُوبُ...قيل:هو السّحاب، وقيل: هو المطر، وتسميته به كتسميته بالسّحاب" (١). وإيثارها على مطر و وابل؛ لأنها تخيل إلى النفس صورة الانصباب المنصب عليهم كأنه الهول.

ثم إنك إذا تأملت هذه الكلمة تجد أنها جاءت منكرة فقال: ﴿كَصَيِّبٍ﴾ ولم يقل:(كالصيب)؛ وذلك للإيذان بأنه نوع شديد من المطر شديد هائل(٢).

ثم إنك تجد أن القرآن الكريم حذف هنا كلمة (مثل) واكتفى بدلالة ما مضى من الكلام في قوله تعالى:﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾يقول الزمخشري:" أو كمثل ذوي صيب. والمراد كمثل قوم أخذتهم السماء على هذه الصفة فلقوا منها ما لقوا"(٣).

وقوله:﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ والصيب لايكون إلا من السماء ، وهنا أفاد زيادة شخوص صورة الصيب ومثولها في الخيال.

﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾والظلمات جمع ظلمة، وقصد بها ظلمة الليل، وظلمة السحاب، وظلمة المطر ، والدليل عل ظلمة الليل قوله تعالى بعد ذلك ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ وقوله:﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ﴾ وهذا لا يمكن أن يكون إلا في الليل (٤)

---

(١) – المفردات في غريب القرآن، مادة (صوب) ٤٩٥.
(٢) – الكشاف ٨٢/١، ومفاتيح الغيب ٢/ ٣١٧.
(٣) – الكشاف١/ ٧٩.
(٤) – تفسير الفاتحة والبقرة ، لابن عثيمين ٦٦/١، ٦٧.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وقوله:﴿يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ﴾ استئناف بياني ناشئ عن سؤال مقدر ، كأنه قيل: فكيف حالهم مع مثل ذلك الرعد؟ فقيل: (يجعلون أصابعهم في آذانهم)[١] ففصلت الجملة عما قبلها ، وهي من شبه كمال الاتصال.

والصواعق جمع صاعقة وهي"الصوت الشديد من الرعدة يسقط معها قطعة نار، ويقال إنها المخراق الذي بيد الملك لا يأتي عليه شيء إلا أحرقه. ويقال: أصعقته الصاعقة تصعقه إذا أصابته، وهي الصواعق والصواقع. ويقال للبرق إذا أحرق إنسانا: أصابته صاعقة"[٢] .

وفي قوله:﴿يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم﴾مجاز مرسل، فعبر القرآن الكريم عن إدخال أنامل الأصابع بإدخال الأصابع كلها، والعلاقة كلية، فأطلق الكل وأراد الجزء وهي أطراف الأصابع ، " ففي ذكر الأصابع من المبالغة ما ليس في ذكر الأنامل"[٣].

ثم بين الحق تعالى أنه لا يفوته أحد منهم، وأنه عالم بما يكنونه في ضمائرهم، قادر على أخذهم أينما كانوا[٤]، فقال:﴿وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ وهذه جملة اعتراضية منبهة على أن ما فعلوه من سد آذانهم بأصابعهم لا يغني عنهم من الله شيئا ، فإن الحيل لا ترد بأس الله[٥] .

---

(١) – الكشاف ١/ ٨٤،٨٣.

(٢) – لسان العرب، مادة(صعق) ١٠/١٩٨.

(٣) – الكشاف ١/٨٤

(٤) – زاد المسير ١/٤٠، وتفسير المراغي ١/٦١.

(٥) – محاسن التأويل١/ ٢٥٩.

وقوله:﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ استئناف بياني آخر، فكأنه قيل:وكيف حالهم مع ذلك البرق؟ فقيل:(يكاد البرق يخطف أبصارهم).

والخطف: الانتزاع بسرعة، فيكاد ضوء البرق السريع أن ينتزع منهم أبصارهم من شدة الضوء المفاجئ [١] .

وقوله: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ﴾ أي:كلما أضاء لهم البرق الطريق في الليلة المظلمة مشوا، وإذا ذهب ضوء البرق وأظلم الطريق وقفوا أمكانهم متحيرين مضطربين، ينتظرون فرصة أخرى يضيء لهم البرق الطريق حتى يتنسنى لهم الوصول إلى مكان يعصمهم من الهلاك[٢].

ومن بديع التعبير القرآني أنه عبر مع الإضاءة بـ(كلما) ومع الظلام بـ(إذا) ، فاستعمل القرآن(كلما) مع الإضاءة؛ للدلالة على شدة حرصهم على إمكان المشي فكلما لمع لهم البرق مشوا في مطرح نوره خطوات يسيرة ، فهم شديدو الحرص على انتهاز الفرص التي يضيء لهم البرق فيها الطريق حتى يتمكنوا من رؤيته والمشي على إثر هذا الضوء ، وليس الأمر كذلك مع الظلام[٣].

وقوله:﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ﴾أي:لو شاء الله أن يذهب بسمعهم بذلك الصوت الرهيب الذي يصدره الرعد، أوشاء أن يسلب منهم أبصارهم بوميض البرق الهائل لذهب بهما، وحذف مفعول المشيئة لدلالة الجواب عليه، والمعنى: لو شاء الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لذهب بها [٤] .

---

(١) – المفردات في غريب القرآن، مادة(خطف) ٧٥.
(٢) – مدارك التنزيل وحقائق التأويل ٦٠/١.
(٣) – مفاتيح الغيب ٢/ ٣١٨، وأنوار التنويل وأسرار التأويل ٥١/١.
(٤) – غرائب القرآن ورغائب الفرقان ١/ ١٧٨.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

ثم ختمت الآيات بقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ تذييل فيه تهديد وتحذير للمنافقين ، وإنما وصف الله نفسه بالقدرة على كل شيء في هذا الموضع ؛ لأنه حذر المافقين بأسه ، وأخبرهم بأنه محيط بهم ، فكان ذكر القدرة مناسبا لذلك(١) .

وهذا التشبيه من بديع التشبيهات القرآنية التي ضربها الله-تعالى- في تصوير حال المنافقين، أو حال فريق منهم ، فشبه القرآن حال المنافقين في حيرتهم واضطرابهم وقلقهم بحال قوم أصابتهم السماء بمطر غزير في ليلة مظلمة مصحوب برعد وبرق وخوف يسدون آذانهم بأصابعهم كيلا يموتوا من شدة ما يسمعون من صوت الرعد(٢) .

وقد ذكر الرازي في وجوه المشابهة بين التشبيهات عدة أوجه ، ويمكن إيجازها فيما يأتي:

أولا: شبه القرآن المنافقين في حيرتهم وجهلهم بالدين بهؤلاء الذين اجتمعت لهم ظلمة السحاب مع هذه الأمور فكان ذلك أشد لحيرتهم إذ لا يرون طريقا ولا يهتدون.

ثانيا: شبه حال المنافقين في ظنهم أن إظهارهم للمؤمنين ما أظهروه ينفعهم وليس بنافعهم بحال من نزلت به هذه الأمور مع الصواعق، فهو يظن أن مخلصه منها جعل أصابعه في آذانه وهذا لا ينجيه مما أراد الله به من موت وغيره.

---

(١) – جامع البيان ١/ ٣٦١، والمحرر الوجيز ١/١٠٤.

(٢) – الكشاف١/ ٨٠،و التفسير القيم ١٢٢،و البحر المحيط ١/ ١٣٩.

ثالثا: شبه حال المنافقين في تأخرهم عن الجهاد فرارا من الموت والقتل بحال من نزلت به هذه الأمور وأراد دفعها بجعل أصبعيه في أذنيه.(١)

إنه مشهد مخيف مهول يترك في النفس أثرا بليغا ينفرها من النفاق ويحذرها منه ومن مصيره.

وهذا التشبيه الذي نحن بين يديه تشبيه تمثيلي مركب، ووجه الشبه فيه: الحيرة والاضطراب والقلق والتخبط وعدم الاهتداء إلى سبيل.

والمتأمل في هذه الآية يرى حشدا من الاستعارات والصور التي تعاضدت فيما بينها لترسم لنا مشهدا حسيا متكاملا جسد القرآن من خلاله تلك الحالة النفسية التي يعيشها المنافقون، ففضحهم وهتك أستارهم.

ولعل هذا ما جعل بعض المفسرين يقابل بين أجزاء التشبيه يقول الطبري: "ضرب الصيب لظاهر إيمان المنافق مثلا، ومثل ما فيه من ظلمات لضلالته، وما فيه من ضياء برق لنور إيمانه، واتقاءه من الصواعق بتصيير أصابعه في أذنيه ، لضعف جنانه ونخب فؤاده من حلول عقوبة الله بساحته ، ومشيه في ضوء البرق باستقامته على نور إيمانه، وقيامه في الظلام، لحيرته في ضلالته وارتكاسه في عمهه" (٢).

ويقول ابن القيم:" شبه نصيب المنافقين مما بعث الله به رسوله من النور والحياة ينصيب أصحاب الصيب وشبه نصيب المنافقين من هذا الهدى بنصيب من لم يحصل له نصيب من الصيب إلا ظلمات ورعد وبرق ، ولا نصيب له فيما وراء ذلك مما هو المقصود بالصيب من حياة البلاد والعباد

(١) – مفاتيح الغيب ٣١٥/٢.
(٢) – جامع البيان ٣٥٢/١.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

والشجر والدواب، فإن تلك الظلمات التي فيه وذلك الرعد والبرق مقصود لغيره، وهو وسيلة إلى كمال الانتفاع بذلك الصيب" (١) .

وهذا التشبيه من بديع التمثيل القرآني؛ حيث إنك "لا تجد حالة صالحة لتمثيل هيئة اختلاط نفع وضر مثل حالة المطر والسحاب"(٢).

وهذا التشبيه الثاني حين نقارنه بالتشبيه الأول نجد أن في كل منهما وصفا دقيقا للحيرة التي كان القوم عليها؛ لكن الحيرة في التشبيه الثاني ليست كالحيرة في التشبيه الأول؛ فالحيرة هنا في ظلمة – كالأول- لكنها لم تكن وحدها التي تشكل الموقف، وإنما هناك صيب منصب – ماء- تحيط به رعود كالصواعق وبروق تخطف الأبصار فالموقف مليء بالرعب والهول لا يحول بينها وبينهم إلا مشيئة الله (٣).

وأختم الحديث عن هذا المثل بما قاله الزمخشري في تعليقه على هذين المثلين:" فإن قلت أي التمثيلين أبلغ؟ قلت الثاني لأنه أدل على فرط الحيرة وشدة الأمر وفظاعته ولذلك أخر، وهم يتدرجون في نحو هذا من الأهون إلى الأغلظ"(٤)

(١) – التفسير القيم ١٢١.
(٢) – التحرير والتنوير ٣١٧/١.
(٣) – التصوير البياني ٨٨.
(٤) – الكشاف ٢١٣/١.

المبحث الثاني

وجه الشبه بين الحياة الدنيا والماء

وقد أفاض القرآن كثيرا في ذكر الدنيا ومعرفة حقيقتها بأساليب متنوعة وفي سياقات مختلفة، جاء بعضها عن طريق التشبيه والتمثيل.

وقد ورد بيان حالها وسرعة انقضائها مع اغترار الإنسان بها عن طريق التشبيه والتمثيل في مواضع متشابهة تشترك في عناصر عدة من أهمها الماء النازل من السماء وتنفرد ببعض العناصر الأخرى الملائمة للسياق الذي وردت فيه، ومن هذه المواضع قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس: ٢٤]

وقال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الكهف: ٤٥]

وقال تعالى في سورة الحديد: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد: ٢٠]

عندما نقف عند هذه الآيات نلحظ أن القرآن الكريم يصور لنا حقيقة الدنيا وما فيها من متع وملذات، فكلها إلى زوال، وإن كانت سياقات الآيات مختلفة لكن جوهرها واحد وهو التحذير من الاغترار بالحياة الدنيا، والركون إليها، وتقرير سرعة انقضائها وفنائها.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وفي ومضة سريعة سأبين مناسبة كل آية وعلاقتها بسياقها، ففي مناسبة آية سورة يونس لما قبلها يقول الرازي: اعلم أنه تعالى لما قال : ﴿.إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [يونس:٢٣] أتبعه بهذا المثل الذي ضربه لمن يبغي في الأرض ويغتر بالدنيا ، ويشتد تمسكه بها ، ويقوى إعراضه عن أمر الآخرة والتأهب لها "((١)).

وبدأت الآية بقوله:﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾وهي جملة مستأنفة مسوقة لبيان شأن الحياة الدنيا وقصر مدة التمتع بها(٢) .

﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾والمقصود بالماء هنا المطر، وتأمل كيف قال ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ولم يقل :(نزل) ؛ للدلالة على أن هذا الإنزال مرتبط بفعل الإرادة العليا، ولم يقل: (نزل) لاعتبر أنه أداة من أدوات القوة الكونية العظمى، وتوحي كلمة(ماء) باللاشيء ، فإذا تأملت هذه الكلمة تجد أنك ما إن تفتح فمك بالميم حتى تنتهي ، فكأنها لاشيء.

ثم تأمل كيف قال القرآن:﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ ولم يقل:(فاختلط بنبات الأرض) ففي هذا التعبير إشارة إلى كثرة الماء النازل من السماء، وأنه السبب الرئيس في ظهور هذا النبات، وفي بلوغه قوته ونضارته،وفيه إيذان بسرعة زوال الدنيا وفنائها؛ حيث يجعلك ترى أن النبات هو الذي يسرع ليستقبل ماء السماء، مع أن الماء هو الذي يسقط على النبات، وتأمل كيف أعطى هذا التعبير المعنى قوة منحته بعدا عميقا، وكذلك الزمن مراحل سريعة (٣).

---

(١) – مفاتيح الغيب ٢٣٦/١٧.
(٢) – إرشاد العقل السليم ١٣٧/٤.
(٣) – تأملات في جماليات النص القرآني ٦١، ٦٢.

وقوله:﴿مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾أي: مما يأكل الناس من الثمار والحبوب والبقول، ومما تأكل الأنعام من الكلأ والتبن والشعير[١] .

ثم تصعد المعاني في ذكر وصول الأرض إلى أقصى مباهج التزين في الحياة ،وذلك في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾و(حتى) "غاية لمحذوف : أي نزل المطر من السماء فاهتزت الأرض وربت وأنبتت النبات الذي مازال ينمو ويزدهر حتى أخذت الأرض زخرفها،والزخرف...كمال حسن الشيء. ومن القول أحسنه، ومن الأرض ألوان نباتها "[٢] أي كمال حسنها.

ثم قال: ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ وظن بمعنى أيقن، أي: أيقن أهل تلك الأرض الزاخرة بالنباتات النافعة أنهم قادرون على حصادها وتحصيل ثمارها، ومتمكنون من التمتع بخيراتها ،والانتفاع بغلاتها [٣].

وانظر إلى جمال الاستعارة المكنية هنا حيث" شُبهت الأرض بالعروس وحذف المشبه به، وأقيم المشبه مقامه ،وإثبات أخذ الزخرف لها تخييل وما بعده ترشيح "[٤].

وقوله:﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا ﴾ هذه الجملة جواب (إذا) في قوله:﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا ﴾وفيها بيان لما ستؤول إليه هذه الأرض، فبعد أن بلغت الأرض الغاية في الجمال وتعلقت بها الآمال، وأراد القوم

---

(١) – بحر العلوم١١١/٢، وفتح القدير ٤٩٧/٢.
(٢) – التفسير الوسيط لسيد طنطاوي٥٥/٧.
(٣) – مفاتيح الغيب ٢٣٧/١٧، وفتح القدير٤٩٨/٢.
(٤) – روح المعاني ٦/ ٩٥.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

الانتفاع بزروعها أتاها أمر الله النافذ لإهلاكها بالليل وهم نائمون أو بالنهار وهم ملتهون .

وترديد وقت الهلاك ليلا أو نهارا يثير في النفس توقع زوال نضارة الحياة وزخرفها في كل الأزمنة، وذلك أبلغ في زجرها، فالشيء الذي يحل في أوقات معينة يكون الناس في آمن من حلوله في غير وقته، وحصيدا: أي مقطوعة الزرع من منابته "[١].

ولم يقف القرآن عند قوله :﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا ﴾وإنما زاد عليها قوله:﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾ للدلالة على الهلاك المباغت، فهلكت فجأة ، وأصبحت قفرا ولم يبق من زروعها شيء حتى كأنها لم تنبت ولم تكن نضرة بالأمس[٢]، يقال: غني بالمكان إذا أقام واستقر به كأنه استغنى به عن غيره [٣].

"وفي إسناد الاستقرار إلى الأرض، مع أن الاستقرار إنما هو لأهلها إشارة إلى أنها بما لبسها من حياة، وما نبض في عروقها وشرايينها من دماء هذه الحياة، وما تزينت به من حلل وحلى قد أصبحت كائنا حيا مستغنيا بما اجتمع له من هذا المتاع والزخرف"[٤].

وأنت ترى في هذا تصويرا مهولا لما أصاب تلك الزروع والجنان من هلاك أتى عليها كلها بعد أن كانت نضرة !

---

(١) – التحرير والتنوير ١١/١٤٣.
(٢) – تفسير المنار ١١/ ٢٨٤
(٣) – مقاييس اللغة ، مادة (غني) ٤/٣٩٧.
(٤) – التفسير القرآني للقرآن ٦/ ٩٨٨.

ثم ختمت الآية بقوله:﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾أي: كذلك نبين الآيات ونوضحها بتقريب المعاني إلى الأذهان لقوم يتفكرون، وقد خصصوا بالذكر؛ لأنهم هم المنتفعون بآيات الله، أما أعمى البصر والبصيرة فيمر على آيات الله ولا يراها [١].

أما آية الكهف فلم يفصل القرآن فيها النضارة والنماء والزينة والزخرف الذي فصله في آية يونس ؛ لأن السياق فيها ليس سياق تحليل للحياة لدنيا، ورسم خطواتها، بل هو تصوير للإقبال ثم الإعراض ، وهو أشبه بالمثل المضروب قبل هذه الآية ، والذي يصور القرآن حال الصاحب الذي أحيط بثمره بعدما كانت له جنة لا يظن أن تبيد أبدا[٢].

وإذا تأملت آية الحديد تجد أن معناها مشترك مع الآيتين السابقتين إلا أنها زادت عليهما في بيان بعض أوجه المتع في الحياة الدنيا، فذكرت اللهو واللعب والتزين والتفاخر والتكاثر في الأموال والأولاد، ووجه اتصال آية الحديد بما قبلها أنه لما حض القرآن الكريم في الآيات السابقة لهذه الآية المؤمنين على الصدقات والإنفاق والجهاد في سبيل الله أعقب هذا الحض بالإشارة إلى دحض سبب الشح وترك الجهاد، وهو الحرص على استبقاء الأموال لإنفاقها في لذائذ الدنيا ، والخوف من القتل، فضرب الله لهم مثل الحياة الدنيا بحال محقرة على أنها زائلة تحقيرا لحاصلها وتزهيدا فيها ؛ لأن التعلق بها يعوق عن الفلاح [٣] .

---

(١) – تيسير الكريم الرحمن ٣٦١.

(٢) – الإعجاز البلاغي ١٢٣، ١٢٤.

(٣) – الجامع لأحكام القرآن ٢٥٤/١٧. والتحرير والتنوير٢٧/ ٤٠١.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

فهذا التفصيل الذي ذكر في بيان بعض مهج الحياة الدنيا ومتاعها يتناسب وحال المخاطبين.

وبعد أن تم الفراغ من تحليل المشبه وتنوعه في الآيات السابقة، ننتقل للوقوف على المشبه به في الآيات السابقه وذلك في قوله :﴿كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ في آية سورة الحديد ، والغيث :" هو الحيا النازل من السماء"[١] ويأتي بعد قنوط الناس، كما قال تعالى:﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥ﴾ [الشورى:٢٨].

والمراد بالكفار في قوله:﴿أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ قيل: هم الزراع، من كفر الحب أي : ستره في الأرض،وخصهم بالذكر؛ لأنهم أهل البصر بالنبات، فلا يعجبهم إلا الذي لاعيب له.

وقيل: هو من الكفر بالله، وخصهم بالذكر لأنهم أشد تعظيما للدنيا وأشد افتتانا بمحاسنها [٢].

﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗا﴾ فالهياج الغلظ ومقاربة اليبس، فذلك الزرع بعد اخضراره ونضارته يقارب اليبس ويصفر لونه إلى أن يجف وييبس[٣] .

ثم بعد ذلك يتكسر ويتهشم من شدة اليبس[٤] .

---

(١) – مقاييس اللغة، مادة(غيث) ٤٠٣/٤.
(٢) – المحرر الوجيز ٢٦٦/٥.
(٣) – التحرير والتنوير ٤٠٥/٢٧.
(٤) – المفردات في غريب القرآن، مادة(حطم)٢٤٣.

وعطفت جملة(ثم يهيج) و(ثم يكون حطاما) بـ(ثم) للدلالة على التراخي الرتبي، فاصفرار النبات من أعظم الدلائل على تهيؤه للزوال، وهذا هو الأهم في مقام التزهيد في الحياة الدنيا ومتاعها [١].

﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞ﴾ بعد أن بينت الآية حقارة الدنيا وسرعة انقضائها وصغر أمرها، عظَّمت أمر الآخرة، وبينت أن الآخرة إما عذاب دائم شديد ، وإما رضوان وهو أعظم درجات الثواب[٢].

﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ هذه الجملة تذييلية مؤكدة لمضمون ماسبق، فالدنيا متاع الغرور لمن ركن إليها واعتمد عليها ، أما المؤمن فالدنيا له متاع بلاغ إلى الجنة [٣].

والمتأمل في آيات السور الثلاث، يجد أنها اشتملت على ثلاث صور لم تخل منه آية يقول د.المطعني :" هذه الصور الثلاث اشتركت في معنى عام لم تخل منه واحدة منها ، وهو تشبيه الدنيا بماء أنزله الله من السماء فأحيا الأرض بعد موتها ، وأنبتت واخضرت واكتملت صورة الأرض بالأشجار والزروع المختلفة الطعوم والألوان والحجوم فدبت على ظهرها الحياة مرحة نشيطة وحالف الحظ أقواما فملكوا من حطامها وعروضها الكثير، وسخروها لخدمتهم وتوصلوا إلى بعض من أسرارها وقد بدت في أعينهم عروسا فاتنة وظنوا أنهم قادرون على على إخضاعها لأغراضهم فركنوا إليها واثقين ، وبينما هم كذلك جاءها أمر الله فدمرها تدميرا "[٤].

---

(١) – التحرير والتنوير ٤٠٥/٢٧.

(٢) – مفاتيح الغيب ٤٦٤/٢٩.

(٣) – الجامع لأحكام القرآن ٢٥٦/١٧.

(٤) – خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية ٢٤٨/٢.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

فالتشبيه في السور الثلاث تشبيه تمثيلي مركب، شبهت فيها صورة بصورة، شبهت حال الدنيا العجيبة الشأن في سرعة انقضائها وانصرام نعيمها بعد إقبالها واغترار الناس بها وتزايد نضارتها، بحال ما على الأرض من أنواع النبات يسوق الله المطر إليها ، فيلتف بعضها على بعض ويتكاثف، ثم لا تلبث أن تنزل بها جائحة فجأة فتستأصلها فتجعلها هشيما وحطاما لم يبق لها أثر بعدما كانت غضة طرية زينت الأرض بألوانها [(١)].

وقد اختلف العلماء في المشبه به ووجه الشبه في هذا المثل على قولين؛ فالشوكاني يرى بأن هذا المثل ضرب بالنبات الذي يخرج من الماء وليس للماء النازل من السماء، حيث قال:" لما ذكر الله سبحانه ما تقدم من متاع الدنيا جاء بكلام مستأنف يضمن بيان حالها وسرعة تقضيها، وأنها تعود بعد أن تملأ الأعين برونقها، وتجتلب النفوس ببهجتها. وتحمل أهلها على أن يسفكوا دماء بعضهم بعضا، ويهتكوا حرمهم حبا لها وعشقا لجمالها الظاهري، وتكالبا على التمتع بها، وتهافتا على نيل ما تشتهي الأنفس منها بضرب من التشبيه المركب...وليس المشبه به هو ما دخله الكاف في قوله: ﴿كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾بل ما يفهم من الكلام، والباء في: فاختلط به نبات الأرض للسببية أي فاختلط بسببه نبات الأرض، بأن اشتبك بعضه ببعض حتى بلغ إلى حد الكمال، ويحتمل أن يراد: أن النبات كان في أول بروزه ومبدأ حدوثه غير مهتز ولا مترعرع، فإذا نزل الماء عليه اهتز وربا حتى اختلط بعض الأنواع ببعض مما يأكل الناس والأنعام من الحبوب والثمار والكلأ والتبن، وأخذت الأرض زخرفها. قال في الصحاح: الزخرف: الذهب، ثم يشبه به كل مموه مزور، انتهى"[(٢)].

(١) – المثل السائر ٢/١١٠، والكشاف: ٢/٣٤٠،٤/ ٤٧٨. والتسهيل لعلوم التنزيل ٢/ ٣٤٧. وإرشاد العقل السليم ٤/١٣٧، والتحرير والتنوير ١١/ ١٤١، ٢٧/٤٠٤.
(٢) – فتح القدير للشوكاني ٢/٤٩٧.

في حين يرى القرطبي أن هذا المثل ضرب بالماء يقول:"وقالت الحكماء: إنما شبه تعالى الدنيا بالماء لأن الماء لا يستقر في موضع ، كذلك الدنيا لاتبقى على حال واحد، ولأن الماء لا يستقيم على حالة واحدة، كذلك الدنيا، ولأن الماء لا يبقى ويذهب، كذلك الدنيا تفنى، ولأن الماء لا يقدر أحد أن يدخله ولا يبتل، كذلك الدنيا لا يسلم أحد دخلها من فتنتها وآفتها، ولأن الماء إذا كان بقدر كان نافعا منبتا، وإذا جاوز المقدار كان ضارا مهلكا، وكذلك الدنيا الكفاف منها ينفع وفضولها يضر"(١)

والإمام القرطبي وإن شار بكلامه إلى حقيقة المشبه به في الآية، إلا أننا نجده قد وضع أيدينا على الغاية من التشبيه ووجه الشبه بين المشبه والمشبه به . ومجمل كلامه أن المعنى المشترك بين الدنيا والماء في الآيات السابقة تنوع وتعدد أحوال كل منهما وعدم استقرارهما على حال واحدة.

أما ابن عاشور فقد جمع بين القولين إذ يقول:" كان التشبيه هنا تشبيه حالة مركبة بحالة مركبة. عبر عن ذلك بلفظ المثل الذي شاع في التشبيه المركب ...شبهت حالة الحياة في سرعة تقضيها وزوال نعيمها بعد البهجة به وتزايد نضارتها بحال نبات الأرض في ذهابه حطاما ومصيره حصيدا. ومن بديع هذا التشبيه تضمنه لتشبيهات مفرقة من أطوار الحالين المتشابهين بحيث يصلح كل جزء من هذا التشبيه المركب لتشبيه جزء من الحالين المتشابهين، ولذلك أطنب وصف الحالين من ابتدائه فقوله: (كماء أنزلناه من السماء) شبه به ابتداء أطوار الحياة من وقت الصبا إذ ليس ثمة سوى الأمل في نعيم العيش ونضارته، فلذلك الأمل يشبه حال نزول المطر من السماء في كونه سبب ما يؤمل منه من زخرف الأرض ونضارتها. وقوله: (فاختلط به نبات الأرض) شبه به طور ابتداء نضارة العيش وإقبال

(١) – الجامع لأحكام القرآن ١٠/٤١٢.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

زهرة الحياة، فذلك يشبه خروج الزرع بعيد المطر فيما يشاهد من بوارق المأمول، ولذلك عطف بفاء التعقيب للإيذان بسرعة ظهور النبات عقب المطر فيؤذن بسرعة نماء الحياة في أول أطوارها. وعبر عنه بالاختلاط بالماء بحيث ظهر قبل جفاف الماء، أي فاختلط النبات بالماء أي جاوره وقارنه " (١).

والصحيح أن القرآن الكريم لم يقصد تشبيهها بالماء وحده أو بالنبات وحده، وإنما أراد صورة منتزعة من اجتماع هذه العناصر على هيئة مخصوصة.

وإذا تأملت عناصر التشبيه في الصور الثلاث، تجدها قد تكونت من الماء (الغيث)، والنبات، والإخضرار والنضارة ، والهلاك ، وهذه العناصر جميعها ساهمت في تكوين الصورة الكلية التي أرادها القرآن، وعلى تعدد هذه العناصر وتنوعها إلا أن العنصر الأبرز في تكوين هذا المشهد ورسم صورته يعود للماء أسُّ الحياة وأصلها وما بعده مبني عليه، مرتبط به ارتباط الفرع بالأصل.

ومن بديع اللفاتات البيانية التي ذكرها عبد الكريم الخطيب في تفسيره لهذه الآية، وتلحظ فيها طول تأمله لها، وكيف استخرج منها هذه الصورة العميقة إذ يقول:"فى هذا التشبيه إعجاز من إعجاز القرآن، وآية من الآيات الدالة على علوّ منزّلته، فالإنسان عنصر من عناصر هذه الحياة، ومادة من موادها، إنه ماء من هذا الماء، هكذا هو فى أصله ومادة تكوينه،يقول تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ [المرسلات: ٢٠]، ويقول سبحانه: ﴿خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾ [الفرقان: ٥٤].

(١) – التحرير والتنوير ١٤١/١١، ١٤٢.

هذا الإنسان الذي هو ابن الماء، يخالط الحياة، ويتحرك فى أحشاء الوجود، وسرعان ما يصبح هذا الكائن، أو هذا الكون الذي يمشى على الأرض، وكأنه جنة قد أخذت زخرفها وازينت،بملأ الأرض تيها وعجبا، ويمشى عليها مختالا فخورا...وهذا الماء الذي ينزل من السماء، ويختلط به نبات الأرض، وقد عرفت شأنه، وما يصنع من هذا النبات،أليس هو الإنسان ابن الماء والطين؟ ثم أليس هذا الإنسان الذي هو محصول هذا الماء، ومنبت ذلك الطين، يصير حصيدا هشيما، كما يصير النبات ابن الماء والطين حصيدا هشيما؟

إن التطابق بين الصورتين على هذا التصوير المعجز، هو آية من آيات الله.. ليس فى مقدور بشر أن يمسك بخيط من خيوط نسجه المحكم الرائع! وهل هذا كل ما هنالك من هذا الإعجاز فى هذه الصورة؟"[١].

وبلاغة هذا التشبيه تظهر في تحذير القرآن الكريم الناس من الانغماس في شهوات الدنيا والتمتع بملذاتها حتى تنسيهم الغرض الذي من أجله وجدوا على هذه الأرض وتنسيهم الموت الذي لا يستأذنهم في المجيء، فصورت الآيات حقيقة الدنيا وكيف تبدو أولا في غاية النضارة والحسن، ثم يزداد جمالها قليلا قليلا إلى أن يكتمل ثم ينهيها الهلاك المفاجئ فتفنى وتزول وكأنها لم تكن، فمثل هذا الشيء ليس لصحاب العقول أن يبتهجوا به .

(١) – التفسير القرآني للقرآن ٦/٩٨٨، ٩٨٩.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

المبحث الثالث

وجه الشبه بين الحق والباطل والماء.

ورد ذكر الحق والباطل في القرآن الكريم في مواضع عديدة بمعان متعددة وأساليب بلاغية متنوعة بعضها جاء على سبيل الحقيقة والبعض الآخر عن طريق التشبيه والمجاز.

وتشبيه الوحي وهو الكلام الحق المنزل على رسوله بالماء النازل من السماء وكيف تستقبله القلوب وتستفيد منه من التشبيهات التي تكرر ورودها في القرآن وفي السنة النبوية (١).

أما من القرآن الكريم فهو قول الحق سبحانه وتعالى:﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ [الرعد:١٧]

المتأمل لهذه الآية يلحظ أن القرآن الكريم بعد أن شبه المؤمن والكافر والإيمان والكفر بالأعمى والبصير والظلمات والنور ، ضرب للإيمان والكفر مثلا آخر وذلك في قوله:﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ أي: أنزل من السماء مطرا ، وتنكير كلمة ماء إما للتكثير أو النوعية ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا ﴾سالت: من (سيل) والسين والياء واللام أصل واحد يدل على جريان وامتداد،(٢)

(١) – من ذلك حديث أبي موسى الأشعري عن النبي– صلى الله عليه وسلم– قال: « مثل ما بعثني الله به من الهدى، والعلم كمثل غيث ... " صحيح مسلم ٤/ ١٧٨٧

(٢) – مقاييس اللغة، مادة (سيل)

أودية : "جمع واد ، وهو الموضع الذي يسيل فيه الماء ، ومنه يسمى المفرْجُ بين الجبلين واديا وجمعه أودية"(١) .

وتأمل كيف أسند القرآن السيلان للأودية، والحقيقة هي أن المياه هي التي تسيل، فهذا مجاز عقلي علاقته محلية(٢).

ثم انظر كيف جاءت كلمة (أودية) منكرة ؛ للدلالة على النوعية، فليس المراد جميع الأودية بل نوع خاص منها ، فـ" المطر لا يأتي إلا على طريق المناوبة بين البقاع، فيسيل بعض أودية الأرض دون بعض"(٣) .

وقوله:﴿بِقَدَرِهَا﴾في موضع الحال من أودية، والقدر بمعنى المقدار، أي :سالت بالمقدار الذي عينه الله تعالى من الماء، واقتضته حكمته في نفع الناس ؛ لأن المطر مثل للحق، وهو نافع خال من الضرر، أو بمقدارها المتفاوتِ قلةً وكثرةً بحسب تفاوتِ محالّها فالكبير يسع كثيرا من الماء، والصغير يسع بقدره (٤) .

﴿فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗا﴾وتأمل كيف عبر القرآن هنا بـ(احتمل) ولم يقل :(حمل) للدلالة علشى المبالغة في الحمل ، فاحتمل فيها زيادة على معنى (حمل) ، "والاحتمال : رفع الشيء على الظهر بقوة الحامل له " (٥) والزبد: هو المادة البيضاء المرتفعة على وجه السيل ،جاء في اللسان :

---

(١) – المفردات في غريب القرآن، مادة (وادي) ٨٦٢.
(٢) – مفاتيح الغيب٢٩/١٩.
(٣) – الكشاف ٥٢٣/٢.
(٤) – إرشاد العقل السليم ١٤/٥ البحر ٣٨١/٥. التحرير والتنوير ١١٨/١٣.
(٥) – نظم الدرر ٣١٥/١٠.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

"والزبد: زبد الجمل الهائج وهو لغامه الأبيض الذي تتلطخ بـــه مشـــافره إذا هاج. وللبحر زبد إذا هاج موجه. الجوهري: الزبد زبد الماء والبعير والفضة وغيرها...وبحر مزبد أي مائج يقذف بالزبد، وزبد الماء والجرة واللعـــاب: طفاوته وقذاه، والجمع أزباد. والزبدة: الطائفة منه. وزبد وأزبد وتزبد: دفع بزبده. وزبده يزبده زبدا: أعطاه ورضخ له من مال"(١).

ورابيا: أي أنه طافيا فوق الماء ، وقيل : زائدا بسبب انتفاخه من ربا يربو إذا زاد(٢).

﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ " و(من) لابتداء الغاية ، أي: ومنه ينشأ زبد مثل زبد الماء "(٣).

والمعنى: أي : مثل ذهب أو فضة يوقد عليها في النار ابتغاء حليـــة يلبسونها ، أو ما ما يوقدون عليه النار من النحاس والحديـــد والرصـــاص لاتخاذ متاع ينتفع به من الأواني والآلات المختلفة، فإذا سبكت هذه المعادن بالنار كان له خبث كالزبد الذي على الماء ، فيذهب منهـــا الخبـــث ويبقـــى الذهب والفضة والنحاس والرصاص خالصا.

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾أي : إذا اجتمع الحق والباطل فإن الباطل لا يثبت ولايدوم كما أن الزبد لا يثبت مع الماء ولا مـــع الـــذهب والفضـــة وغيرها من المعادن، بل تراه يضمحل إلى أن يذهب(٤) .

---

(١) – لسان العرب، مادة(زبد) ٣/ ١٩٣.
(٢) – غرائب القرآن ورغائب الفرقان ١٥١/٤.
(٣) – الكشاف ٢/ ٥٢٣.
(٤) – جامع البيان ١٦/ ٤٠٨، وبحر العلوم ٢٢٢/٢. تفسير القرآن العظيم ٤/ ٤٤٧.

ثم قال:﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ على سبيل اللف والنشر، وتأمل كيف أن القرآن الكريم لما بدأ بالتقسيم ذكر الزبد أولا ، مع كونه المتأخر في الذكر، ولو كان على ترتيب المذكور أولا لقال:(أما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض، وأما الزبد فيذهب جفاء) وهذه طريقة فصيحة حيث يبدأ بالتقسيم بما ذكر آخرا ؛ ويبدأ بتفصيله لكونه الأهم في الذكر، أولعل السبب يعود إلى أن الزبد هو الظاهر المشاهد أولا، وغيره باق متأخر في الوجود لاستمراره(١).

وهنا يبين الحق – تعالى- مآل الزبد ومصيره ،فهذ الزبد الذي يعلو مياه السيول، والذهب والفضة والنحاس وغيرها من المعادن عند الإيقاد عليها، فإنه يذهب جفاء حين تقذفه المياه ، وتدفعه الرياح، فتجده متعلقا بالأشجار، وعلى جوانب الوادي (٢).

وقوله :﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ " تفخيم لشأن هذا التمثيل وتأكيد لقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾إما ابتناء هذا على التمثيل الأول، أو بجعل ذلك إشارة إليهما"(٣).

وقد اختلف المفسرون حول المراد بالحق في هذه الآية السابقة، هل هو كلام الله خاصة أم الحق عموما، فذهب الطبري وابن كثير والزمخشري إلى القول الثاني هو الحق، قال الطبري: "وهذا مثل ضربه الله للحق والباطل، والإيمان به والكفر ، يقول تعالى ذكره: مثل الحق في ثباته

(١) – البحر المحيط ٦/ ٣٧٤، ومحاسن التأويل ٢٢٧/٦.
(٢) – جامع البيان ٤٠٩/١٦.
(٣) – محاسن التأويل ٦/ ٢٧٧.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

والباطل في اضمحلاله مثل ماء أنزله الله من السماء إلى الأرض :﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾يقول: فاحتملته الأودية بملئها، الكبير بكبره، والصغير بصغره، ﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾يقول: فاحتمل السيل الذي حدث عن ذلك الماء الذي أنزله الله من السماء، زبدًا عاليًا فوق السيل، فهذا أحدُ مثلي الحقّ والباطل، فالحق هو الماءُ الباقي الذي أنزله الله من السماء، والزبد الذي لا ينتفع به هو الباطل"(١).

وقال ابن كثير:" اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضروبين للحق في ثباته وبقائه، والباطل في اضمحلاله وفنائه"(٢).

ويقول الزمخشري: "فمثل الحق وأهله بالماء الذي ينزله من السماء فتسيل به أودية الناس فيحيون به وينفعهم أنواع المنافع... وأن ذلك ماكث في الأرض باق بقاء ظاهراً، يثبت الماء في منافعه. وتبقى آثاره في العيون والبئار والجبوب، والثمار التي تنبت به مما يدّخر ويكنز، ...وشبه الباطل في سرعة اضمحلاله ووشك زواله وانسلاخه عن المنفعة، بزيد السيل الذي يرمى به "(٣).

فالزمخشري ذهب إلى أن الآية فيها تشبيهان : الأول شبه الحق وأهله بالماء النازل من السماء والذي تسيل به أودية فيحيا بها الناس وينتفعون بها بما بقي من أثار الماء في العيون والأبار، وبما تنبته هذه الماء من الثمار التي يدخرونها وينتفعون بها،وشبه الباطل بزبد الماء الذي يرمى به.

---

(١) – جامع البيان ت شاكر ١٦/ ٤٠٩.
(٢) – تفسير القرآن العظيم ٤/٤٤٧.
(٣) – الكشاف ٢/ ٥٣٢.

ويرى الطاهر والثعالبي أنه كلام الله، يقول ابن عاشور في هذا المثل:"شبهت هيئة نزول الآيات وما تحتوي عليه من إيقاظ النظر فيها فينتفع به من دخل الإيمان قلوبهم على مقادير قوة إيمانهم وعملهم، ويمر على قلوب قوم لا يشعرون به وهم المنكرون المعرضون، ويخالط قلوب قوم فيتأملونه فيأخذون منه ما يثير لهم شبهات وإلحادا.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ [سورة آل عمران: ٧] .شبه ذلك كله بهيئة نزول الماء فانحداره على الجبال والتلال وسيلانه في الأودية على اختلاف مقاديرها، ثم ما يدفع من نفسه زبدا لا ينتفع به ثم لم يلبث الزبد أن ذهب وفني والماء بقي في الأرض للنفع" (١).

ويقول الثعالبي:"ويقال:إن هذا سيل القرآن ينزل من السماء فيحتمل منه القلوب حظها على قدر اليقين والشك والعقل والجهل ، فهذا مثل الحق والباطل"(٢).

وبالعموم فلا تعارض بين القولين، وإن كان القول الثاني أعم وأشمل من القول الأول.

ولو اطلعت على كتب التفسير لوجدت كثيرا من المفسرين قد جزؤوا هذا التشبيه إلى تشبيهات واستعارات متقابلة فقالوا: شبه القرآن بالمطر، والقلوب بالأودية ، والهدى بالسيل، وشبه الباطل بالزبد يقول السمرقندي: "فشبه القرآن بالمطر، وشبه القلوب بالأودية، وشبه الهدى بالسيل ...فشبه

(١) – التحرير والتنوير١٣/ ١١٧.
(٢) – الكشف والبيان عن تفسير القرآن ٥/ ٢٨٣.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

الزبد بالباطل"[١]، وقيل :" وهذا مثل ضربه الله تعالى للقرآن وما يدخل منه في القلوب ، فشبه القرآن بالمطر لعموم خيره وبقاء نفعه ، وشبه القلوب بالأودية يدخل فيها من القرآن مثل ما يدخل في الأودية من الماء بحسب سعتها وضيقها"[٢].

والتشبيه في الآية الكريمة تتشبيه تمثيلي مركب، ووجه الشبه :هو التمكن والثبات والانتفاع في الماء ، والاضمحلال والزوال في الزبد .

يقول الإمام ابن جرير مبينا وجه الشبه من هذا التشبيه:" مثل الحق في ثباته والباطل في اضمحلاله مثل ماء انزله الله ن السماء إلى الأرض ...فاحتلته الأودية بملئها الكبير بكبره والصغير بصغره ... فالحق هو الماء الباقي الذي أنزله الله من السماء ، والزبد الذي لا ينتفع به هو الباطل"[٣]

و لعل مقصود القرآن بهذا المثل هو تشبيه صورة مركبة بصورة مركبة، فالقرآن أراد لهيئة المركبة من مجموع هذه الاستعارات والتشبيهات، يقول ابن عاشور: "ولما كان المقصود التشبيه بالهيئة كلها جيء في حكاية ما ترتب على إنزال الماء بالعطف بفاء التفريع في قوله: فسالت وقوله: فاحتمل فهذا تمثيل صالح لتجزئة التشبيهات التي تركب منها وهو أبلغ التمثيل"[٤].

وهكذا نجد أن هذا التشبيه استمد عناصره من الطبيعة ، فهذه صورة واقعة في الحياة يراها باديهم وحاضرهم، فأنت ترى أن القرآن الكريم رسم

---

(١) – بحر العلوم ٢/ ٢٢٢،.

(٢) – والتكت والعيون ٣/ ١٠٦، مفاتيح الغيب ٢٩/١٩، والتفسير القيم٣٣٤.

(٣) –جامع البيان ٤٠٨/١٦.

(٤) – التحرير والتنوير١٧٧/١٣.

هذا المثل في صورة حسية حية متحركة يراها كل من عاش في الصحراء، فالمشبه عقلي ، والمشبه به حسي.

وهكذا وبهذا المثل البديع الماثل بين أيديهم، وهذ الأجواء المـــاطرة، يرون الماء يسقط على المرتفات فينحدر في بطون الأودية ؛ فإذا بها تســـيل في منظر بديع، يملأ النفس رغبة ورهبة، وهي ترى وتسمع هـــدير الســـيل ودوية وقوة اندفاعه وجيشانه يشنف الآذان الواعية، ويملأ القلوب الخاليـــة فتخبت له وتنقاد إليه، وتحسبها لشدة تأثرها به وإقبالها عليع كأنها تسيل.

أفيستوي من يعمي عن هذا الحق الذي أبهج الكون كله وأهاجه، بمن أبصره وملأ به فؤاده، أم هل تستوي ظلمات الكفر والشك والنفاق مع نـــور الحق والإيمان واليقين ؟

فبهذا التمثيل ينتصب الحق مرئيا مشاهدا في أعظم آية من آيات الله في الكون في هذا الماء الذي جعل الله منه كل شيء حيا ليمثل الحق، بل هو عين الحق لشدة المماثلة.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

المبحث الرابع

وجه الشبه بين أعمال الكفار والماء

ذكر الله الكافرين وذكر بعض أحوالهم وصفاتهم ، وتوعد لهم بالجزاء في الدنيا قبل الآخرة بأساليب متنوعة وفي سياقات عديدة.

وإذا كان القرآن قد أكثر من ذكر أعمالهم الضالة وتجارتهم السيئة فإنه لم يغفل عن ذكر حسناتهم وأعمالهم الحسنة التي قاموا بها في الدنيا ؛ وأن مآلها إلى ذهاب بسبب ما ارتكبوه من جرم عظيم يمحق كل عمل نافع قاموا به، يصدق هذا المعنى ويؤكده قول الحق تعالى:﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان:٢٣].

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ۚ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور:٤٠]

عندما نقف على سياق الآيتين نرى أن الحق –تعالى– بعد أن ذكر أعمال المؤمنين وجزاءهم عليها أعقب ذلك بضده من ذكر أعمال الكافرين التي يحسبونها قربات عند الله وما هي بمغنية عنهم شيئا على طريقة القرآن في إرداف البشارة بالنذارة قال صاحب التحرير والتنوير:" لما جرى ذكر أعمال المتقين من المؤمنين وجزائهم عليها بقوله تعالى: (يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال) إلى قوله:(ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب) [النور: ٣٦– ٣٨] أعقب ذلك بضده من حال أعمال الكافرين التي يحسبونها قربات عند الله تعالى وما هي بمغنية عنهم شيئا على عادة القرآن في إرداف البشارة بالنذارة، وعكس

ذلك كقوله:(ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات) [آل عمران: ١٩٧، ١٩٨] إلخ فعطف حال أعمال الكافرين عطف القصة على القصة"(١).

ويقول الرازي:" لما بين حال المؤمن، وأنه في الدنيا يكون في النور وبسببه يكون متمسكا بالعمل الصالح، ثم بين أنه في الآخرة يكون فائزا بالنعيم المقيم والثواب العظيم، أتبع ذلك بأن بين أن الكافر يكون في الآخرة في أشد الخسران، وفي الدنيا في أعظم أنواع الظلمات، وضرب لكل واحد منهما مثلا"(٢).

وقد أخرج ابن جرير بسنده عن ابن عباس "قال: هو مثل ضربه الله لرجل عطش فاشتدّ عطشه، فرأى سرابا فحسبه ماء، فطلبه وظنّ أنه قد قدر عليه، حتى أتاه، فلما أتاه لم يجده شيئا، وقبض عند ذلك، يقول الكافر كذلك، يحسب أن عمله مغن عنه، أو نافعه شيئا، ولا يكون آتيًا على شيء حتى يأتيه الموت، فإذا أتاه الموت لم يجد عمله أغنى عنه شيئا، ولم ينفعه إلا كما نفع العطشانَ المشتدّ إلى السرابِ" (٣).

فظنوا أن أعمالهم صالحة، وأنها نافعتهم وسيرجعون منها إلى خير، لكنهم لم يرجعوا منها إلا كما رجع صاحب السراب، فمثل أعمالهم هذه في أنها عملت على خطأ وفساد وضلال مثل الظلمات المتراكمة في بحر لجي(٤).

---

(١) – التحرير والتنوير١٨/٢٥٠

(٢) – مفاتيح الغيب ٢٤/٣٩٩.

(٣) – جامع البيان ١٩/١٩٦.

(٤) – المرجع السابق ١٩/١٩٧.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وبدأت الآيات بقوله:﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ﴾أي: الذين جحدوا الإله وكفروا به، وكان الكلام يقتضي أن يقال:(وأعمال الذين كفروا كسراب) ولكن أسلوب القرآن بدأ بقوله:﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ فجعله مسندا إليه أولا ثم بنى عليه مسندا آخر وهو قوله:﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ ﴾؛ فأراد القرآن أن يبين أن الحكم على هذه الأعمال بالفساد ليس لكونها كذلك في ذاتها ،ولكن لكونها أعمال كفار، فلا شيء يفسد العمل كالكفر بالله ، يقول ابن عاشور:" والذين كفروا مبتدأ وخبره جملة: أعمالهم كسراب إلخ. وجعل المسند إليه ما يدل على ذوات الكافرين ثم بني عليه مسند إليه آخر، ولم يجعل المسند إليه أعمال الذين كفروا من أول وهلة لما في الافتتاح بذكر الذين كفروا من التشويق إلى معرفة ما سيذكر من شؤونهم ليتقرر في النفس كمال التقرر وليظهر أن للذين كفروا حظا في التمثيل بحيث لا يكون المشبه أعمالهم خاصة"(١).

والمراد بأعمالهم، قيل: الأعمال التي هي من أبواب الخير والبر والإحسان كالصدقة والصلة وعمارة البيت وسقاية الحاج، فهي أعمالهم التي كانوا يفتخرون بها في كل واد وناد وقيل: المراد بها الأعمال الحسنة والسيئة ليتأتى التشبيهان(٢).

والسراب: ما يرُى وقت الظهيرة في الفلاة يسرب على وجه الأرض كأنه ماء جار، جاء في اللسان :"السراب الذي يكون نصف النهار لاطئا بالأرض، لاصقا بها، كأنه ماء جار...وقال ابن السكيت: السراب الذي يجري

(١) – التحرير والتنوير ٢٥١/١٨.
(٢) – فتح القدير٤٥/٤،وروح المعاني ٣٧١/٩، ٣٧٢.

على وجه الأرض كأنه الماء، وهو يكون نصف النهار...وقال أبو الهيثم: سمي السراب سرابا، لأنه يسرب سروبا أي يجري جريا"[١].

﴿بِقِيعَةٍ﴾والقيعة: يقال: قاع وقيعة وقيعان، وهي الأرض المستوية الواسعة، يقول الراغب:" والقِيعُ والْقَاعُ: المستوي من الأرض، جمعه قِيعَانٌ"[٢]. وهي كما وصفها النبي – صلى الله عليه وسلم-" لا تمسك ماء ولا تنبت كَلَا " وفيه ما يؤكد أن ما على الأرض إنما هو وهم لا حقيقة له عليها.

وقوله:﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾أي: يحسب الظمآن، وهو الذي أصابه عطش شديد أن ذلك السراب ماء.

وقد فرق الراغب بين الحسبان والظن إذ يقول:"والحِسْبَان:أن يحكم لأحد النقيضين من غير أن يخطر الآخر بباله، فيحسبه ويعقد عليه الإصبع، ويكون بعرض أن يعتريه فيه شك، ويقارب ذلك الظنّ، لكن الظنّ أن يخطر النقيضين بباله فيغلّب أحدهما على الآخر" [٣].

وتأمل كيف آثر القرآن الكريم هنا التعبير بـ(الظمآن) دون (الرائي)، ولم يقل:(يحسبه الرائي ماء) مع أن السراب يراه كل من الظمآن والريان ؛ ولكن القرآن خصص الحسبان بالظمآن مع شموله كل من يراه كائنا من كان من العطشان والريان؛ لأن حاجة الظمآن إلى الماء أشد، يقول الرماني:" ولو قيل: يحسبه الرائي ماء ثم يظهر أنه على خلاف ما قدر لكان بليغا، وأبلغ منه لفظ القرآن ؛ لأن الظمآن أشد حرصًا عليه وتعلق به"[٤].

---

(١) – لسان العرب /٤٦٦،٤٦٥.
(٢) – المقردات في غريب القرآن ٦٨٨.
(٣) – المرجع السابق.
(٤) – النكت في إعجاز القرآن للرماني(ضمن ثلاث رائل في إعجاز القرآن) ..٨٢

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ حتى إذا جاء الظمآن السراب الذي حسبه ماء بعد رحلة شاقة أجهده فيها الظمأ وعلق به رجاءه ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾أي: لم يجد ذلك السراب شيئا مما طلبه [١].

وانظر إلى تنكير كلمة (شيئا) وما دلت عليه من ضآلة هذا السراب، ثم تأمل كيف قال القرآن (شيئا) ولم يقل: ماء؛ وذلك للدلالة على أنه عدم مطلق، يقول الدكتور محمد أبو موسى:" ...التنكير في كلمة سراب منبئا عن سراب ضئيل تافه، وتظهر هذه الإشارة الدقيقة حين نذهب بهذه الخصوصية ونقول: أعمالهم كالسراب ،ووراء ذلك ما وراءه من تعلق هذا الظامئ المتحرق بالأمل وإن كان ضعيفا تائها...ثم وقوع كلمة ﴿شَيْـًٔا﴾ مفعولا به لقوله:﴿لَمْ يَجِدْهُ﴾ وكان يمكن أن يقول : (لم يجده ماء) ولكن كلمة شيء جعلته عدما مطلقا"[٢]. فيشتد يأسه وتعظم حسرته.

﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ ولم تنته حاله عند هذا الحد ، بل إنه سيجد عقاب الله وعذابه الذي توعد به الكافر فيتغير ما كان فيه من حسبان النفع إلى تيقن الضرر والعذاب ، أو يجد زبانية الله عنده فيسوقونه إلى جهنم [٣].

وتأمل الفاء في قوله:﴿فَوَفَّىٰهُ﴾ "وما تشير إليه من سرعة الكفح ونزول العذاب ،ثم تأمل إسناد التوفية إلى ضمير ذي الجلال، والله هو الذي يتولى عذابه بنفسه، وفيه من الدلالة على شدة الغضب مافيه"[٤] .

---

(١) – جامع البيان ١٩٦/١٩، وبحرالعلوم٥١٥/٢.
(٢) – الإعجاز البلاغي ١١٨.
(٣) – مفاتيح الغيب ٢٩٩/٢٤.
(٤) – الإعجاز البلاغي١١٩.

﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ جملة تذييلية مقررة لمضمون ماقبلها، فالحق – تعالى– لا يماطل الحساب ولا يؤخره عن أحد، وهو عام في حساب الخير والشر(١).

ولما ذكر الله – سبحانه وتعالى– حال أعمالهم التي كانوا يظنون ويتوهمون النفع فيها ثم ما آلت إليه حالهم من الخيبة واضمحلال العمل وأنها كالسراب الخادع الذي لاحياة ولا نفع فيه، أردف الصورة الأولى بصورة أخرى لأعمالهم الباطلة الخالية من النور بدأها بقوله: ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ﴾ وقدذكر المفسرون في (أو) هنا وجوها عدة فقالوا:

إنها جاءت في عطف التشبيهات لتدل على التخيير، والمعنى على ذلك: إن شئت مثل بالسراب وإن شئت مثل بالظلمات ، فأعمالهم كسراب بقيعة لا نفع فيها أو كظلمات خالية من نور الحق.

أو إنها دالة على التنويع، والمعنى : إن أعمالهم هي في حقيقتها لا تخلو من أن تكون حسنة كالسراب، وسيئة كالظلمات.

أو إنها دالة على التقسيم، باعتبار وقتين، فأعمالهم كالظلمات في الدنيا وكالسراب في الآخرة (٢).

ولا تعارض بين هذه الأقوال؛ وإن كان المعنى الأول أدق وإليه ذهب أكثر المفسرين.

---

(١) – التحرير والتنوير ١٨/٢٥٤.

(٢) – بحر العلوم ٢/٥١٦، و مفاتيح الغيب ٢٤/ ٤٠٠، أنوار التنويل وأسرار التأويل ٤/١٠٩.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وذكر أبو حيان أن في قوله:﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ﴾ حذف ، والتقدير:(أو كأعمال ذي ظلمات) فيقدر (ذي) لدلالة قوله بعدها:﴿ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ﴾ ويقدر (أعمال) ليصح تشبيه أعمال الكفار بأعمال صاحب الظلمات، أو لا حذف فيه، والضمير في قوله:﴿ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ﴾ فيعود إلى مذكور حذف اعتمادا على المعنى ، وتقديره:(إذا أخرج من فيها يده)[١].

والظلمات : جمع ظلمة ، وهي ظلمة البحر، وظلمة الموج ، وظلمة السحاب وقد وردت بصيغة الجمع الدال على الكثرة للدلالة على شدتها وتراكمها، وهي ظلمات كثيرة وعظيمة بعضها فوق بعض [٢].

﴿فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ واللجي: هو البحر العميق الكثير الماء المتلاطم الأمواج ، جاء في اللسان:" ولُجَّةُ البحر: حيث لا يدرك قعره... ولج البحر: عرضه؛ قال: ولج البحر الماء الكثير الذي لا يرى طرفاه...ولجة الماء، بالضم: معظمه، وخص بعضهم به معظم البحر"[٣]. فهي ليست ظلمات وحسب؛ بل هي ظلمات في بحر بعيد الغور.

﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾ والضمير في يغشاه عائد إلى البحر، أي: يعلو ذلك البحر أمواج متتابعة ، بعضها فوق بعض، ومن فوق ذلك الموج سحاب [٤] .

---

(١) – البحر المحيط٨/٥٣.
(٢) – المرجع السابق ٦/٤٦٢.
(٣) – لسان العرب (٢/ ٣٥٤)
(٤) – زاد المسير ٣/ ٢٩٩.

والمعنى : ظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب .

وتأمل كيف جاءت هذه الكلمات منكرة (موج) و(سحاب) ؛ وذلك للتفخيم والتهويل.

" والبحر أخوف ما يكون إذا توالت أمواجه، وإذا انضم إلى ذلك وجود السحاب من فوقه، زاد الخوف شدة؛ لأنها تستر النجوم التي يهتدي بها من في البحر، ثم إذا أمطرت تلك السحب وهبَّت الريح المعتادة في الغالب عند نزول المطر، تكاثفت الهموم، وترادفت الغموم، وبلغ الأمر إلى الغاية التي لبس وراءها غاية"[١] .

﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾ "استئناف، والتقدير: هي ظلمات، والمراد بـ(ظلمات) هنا غير المراد بقوله:(أو كظلمات) ؛ لأن الجمع هنا جمع أنواع، وهنالك جمع أفراد من نوع واحد"[٢] .

وقوله:﴿إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ﴾ "تأكيد لشدة هذه الظلمات"[٣] ، فالواقع في هذه الظلمات إذا أخرج يده لم يكد يراها، فضلا عن أن يراها، من شدة الظلمات المتراكمة ، وإنما خص (اليد)بالذكر دون الجوارح الأخرى، قيل: لأنها الأقرب ما يرى إليه[٤] ،وقد يقال بأنها وسيلته القوية للنجاة.

---

(١) – فتح القدير للشوكاني ٤/٤٦.

(٢) – التحرير والتنوير ١٨/ ٢٥٦.

(٣) – التفسير الوسيط للواحدي ٣/ ٣٢٣.

(٤) – حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٦/٣٩٠. التفسير الوسيط لسيد طنطاوي ١٠/ ١٣٤.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ جملة تذييلية مقررة لمضمون "ما قبلها من كون أعمال الكفرة على تلك الصفة ، والمعنى ومن لم يجعل الله له هداية فماله من هداية، قال الزجاج ذلك في الدنيا، والمعنى : من لم يهده الله لم يهتد، وقيل: المعنى من لم يجعل له نورا يمشي به يوم القيامة فما له من نور يهتدي به إلى الجنة"(١).

وإذا تأملت هاتين الآيتين تجد أن القرآن الكريم قد ضرب بهما مثلين مهولين لأعمال الكفار، فشبه أعمالهم أولا بسراب يلوح في أرض مبسوطة يلتمع التماعا كاذبا، فيتبعه صاحبه الظامئ، وهو يتوقع الارتواء غافلا عما ينتظره هناك، فلا يصل لشيء ولا يجد إلا الخيبة ثم شبه أعمالهم لبطلانها وخلوها عن نور الحق والهداية بظلمات متراكمة في بحر عميق يعلوه موج هائج متراكب بعضه على بعض، ويعلوه سحاب عظيم ثقيل.

يقول الزمخشري: "شبه أعمالهم أولا في فوات نفعها وحضور ضررها بسراب لم يجده من خدعه من بعيد شيئا، ولم يكفه خيبة وكمدا أن لم يجد شيئا كغيره من السراب، حتى وجد عنده الزبانية تعتله إلى النار، ولا يقتل ظمأه بالماء. وشبهها ثانيا في ظلمتها وسوادها لكونها باطلة، وفي خلوها عن نور الحق بظلمات متراكمة من لج البحر والأمواج والسحاب"(٢).

وهذان تشبيهان تمثيليان، شبه فيهما معقول بمحسوس، يقول الرماني في تعليقه على هذا المثال: "فهذا بيان قد أخرج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه ، وقد اجتمعتا في بطلان التوهم مع شدة الحاجة وعظم الفاقة "(٣).

---

(١) – فتح القدير ٤/٤٧.

(٢) - الكشاف ٣/٢٤٤.

(٣) – النكت في إعجاز القرآن للرماني (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) ٨٢.

وإذا تأملت كلا التمثيلين تجد أن الماء عنصر من عناصـــر تركيـــب التشبيهين، فعناصر التشبيه الأول، هي: أعمال الكافرين، والسراب، والقيعة، والماء.

أما التشبيه الثاني فالعناصر التي تكون منها هي: أعمال الكـــافرين ، وظلمات، وبحر لجي، وأمواج ، وسحاب...

واللافت في هذين التشبيهين أن الماء عنصر مشترك فيهما؛ فـــالأول جاء على صورة سراب، أما الآخر فقد جاء على صورة بحر لجي يمثل حالة الظلام التي كان عليها هؤلاء الكفار.

وهذا العنصر المشترك قد كان محورا بارزا في تشكيل الموقف وبيان الحالة التي كان عليها المشبه؛ ومع اشتراك السراب والبحر في الأصل وهو الماء إلا أن كلا منهما له دلالة خاصة تختلف عن دلالة الآخر.

قال الرازي مبينا وجه الشبه بين ضلال سعي الكافر وبين السراب :" ثم وجه التشبيه أن الذي يأتي به الكافر إن كان مـــن أفعـــال البـــر فهـــو لا يستحق عليه ثوابا، مع أنه يعتقد أن له ثوابا عليه، وإن كان من أفعال الإثم فهو يستحق عليه عقابا مع أنه يعتقد أنه يستحق عليه ثوابا، فكيف كان فهو يعتقد أن له ثوابا عند الله تعالى، فإذا وافى عرصات القيامة، ولم يجد الثواب بل وجد العقاب العظيم عظمت حسرته وتناهى غمه، فيشبه حاله حال الظمآن الذي تشتد حاجته إلى الماء فإذا شاهد السراب تعلق قلبه بـــه ويرجـــو بـــه النجاة ويقوى طمعه فإذا جاءه وأيس مما كان يرجوه فيعظم ذلك عليه وهذا المثال في غاية الحسن" (١).

---

(١) – مفاتيح الغيب ٣٩٩/٢٤.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وقال ابن كثير معلقا على هذه الآية ومبينا وجه الشبه بينها وبين آية البقرة آية الرعد، وفي هذه الآية قسم الله الكفار إلى قسمين: داعية ومقلد، ثم قال:" هذان مثلان ضربهما الله تعالى لنوعي الكفار، كما ضرب للمنافقين في أول " البقرة" مثلين ناريا ومائيا، وكما ضرب لما يقر في القلوب من الهدى والعلم في سورة "الرعد" مثلين مائيا وناريا، وقد تكلمنا على كل منها في موضعه بما أغنى عن إعادته، ولله الحمد والمنة، فأما الأول من هذين المثلين: فهو للكفار الدعاة إلى كفرهم، الذين يحسبون أنهم على شيء من الأعمال والاعتقادات، وليسوا في نفس الأمر على شيء، فمثلهم في ذلك كالسراب الذي يرى في القيعان من الأرض عن بعد كأنه بحر طام... فكذلك الكافر يحسب أنه قد عمل عملا وأنه قد حصل شيئا، فإذا وافى الله يوم القيامة وحاسبه عليها، ونوقش على أفعاله، لم يجد له شيئا بالكلية قد قبل، إما لعدم الإخلاص، وإما لعدم سلوك الشرع"(١).

هذا المشهد في هاتين الآيتين يرسم حال الكافرين ومآلهم بمشهدين عجيبين حافلين بالحركة والحياة؛ مشهد يرسم أعمالهم في صورة سراب في أرض مكشوفة يلمع كالنور يصل إليه السائر فلا يجد ماء يرويه ، وآخر يتمثل في ظلمات بحر لجي متراكم بعضه فوق بعض لا نور فيه، وضلال لا يرى فيه القلب أقرب علامات الهدى ، ويختم هذا المشهد المؤثر بقول الحق سبحانه: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾.

(١) – تفسير القرآن العظيم ٦/٧٠، ٧١.

المبحث الخامس

وجه الشبه بين عجز الأولياء عن إجابة الدعاء والماء.

اتخذ كثير من المشركين الآلهة من دون الله زاعمين في ذلك أنها تقربهم إلى الله زلفى، فمنهم من عبد الأصنام، ومنهم من عبد الشمس، ومنهم من عبد الملائكة!

والرسل جميعم دعوا الناس إلى عبادة الله وحده ؛ لأنه هو الموجد الحقيقي لهذا الكون والمتصرف فيه، فوجب أن تصرف العبادة له وحده دون سواه.

والمتأمل في كتاب الله يجد وبكثرة أن الحق – تعالى– يسفه عقول هؤلاء المقلدين لآبائهم، ويدعوهم إلى إعادة النظر في معبوداتهم ، والتبصر في أحوالها إن كانت لديهم عقول!

ومنها هذه الآية المتعلقة بموضوعنا في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ١٤﴾ [الرعد: ١٤]

هذه الآية الكريمة متصلة بالآيات قبلها اتصالا وثيقا ، فبعد أن خوف الحق –تعالى– عباده بأنه إذا أراد بقوم سوء فلا مرد له، ثم أتبعها بآيات مشتملة على أمور دالة على قدرة الله وحكمته، وهي تشبه النعم حينا وتشبه العذاب والقهر حينا آخر ، ثم لما كان هناك من يجادل في الله بالرغم من هذه الأدلة المبينة لكمال قدرته –تعالى– وألوهيته ، ويشكون في عظمته، وأنه لا إله إلا هو، وكان جدال الكفار في إثبات آلهة معه ذكر تعالى أن

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

دعوة الحق له وحده[١] ، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾ [الرعد: ١٣].

وقد روى ابن جرير بسنده عن علي رضي الله عنه في معنى هذه الآية قوله :" كالرجل العطشان يمد يده إلى البئر ليرتفع الماء إليه وما هو ببالغه... يدعو الماء بلسانه ويشير إليه بيده، ولا يأتيه أبدًا...وليس ببالغه حتى يتمزَّع عنقه ويهلك عطشًا قال الله تعالى: (وما دعاء الكافرين إلا في ضلال) هذا مثل ضربه الله ؛ أي هذا الذي يدعو من دون الله هذا الوثنَ وهذا الحجر لا يستجيب له بشيء أبدًا ولا يسُوق إليه خيرًا ولا يدفع عنه سوءًا حتى يأتيه الموت، كمثل هذا الذي بسط ذارعيه إلى الماء ليبلغ فاه ولا يبلغ فاه ولا يصل إليه ذلك حتى يموت عطشًا" [٢].

وأول ما افتتحت به الآية قوله:﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ والضمير في (له) عائد على الله –تعالى– وفي وقوله:﴿دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ قال ابن عباس : دعوة الحق هي لاإله إلا الله، أي: له من خلقه الدعوة الحق، وقال الحسن: إن الله تعالى هو الحق، فمن دعاه دعا الحق، وقيل: إن عبادته هي الحق والصدق[٣].

وإضافة الدعوة إلى الحق من باب إضافة الموصوف إلى صفته، والمعنى دعوة المدعو الحق الذي يسمع فيجيب ، فأضيفت الدعوة إلى الحق الذي هو نقيض الباطل، فهي ملابسة للحق مختصة به، وهي بمعزل من الباطل[٤].

---

(١) – البحر المحيط ٣٦٦/٦.
(٢) – جامع البيان ٤٠٠/١٦، ومفاتيح الغيب ٢٥/١٩.
(٣) – المحرر الوجيز ٣٠٥/٣.و زاد المسير٢/ ٤٨٨، ومفاتيح الغيب ١٩/ ٢٤.
(٤) – الكشاف ٥٢٠/٢ ، ٥٢١.

وهنا نرى أن القرآن الكريم قدم المسند (له) على المسند إليه (دعوة الحق) ، لإفادة معنى الاختصاص، فدعوة الحق ملكه- سبحانه- لا ملك غيره ، وهو قصر إضافي[١].

ثم قال:﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: فالآلهة والأصنام التي يدعونها من دون الله ، ومعنى (من دونه) إيذان بأنها مقصرة، ولا يمكن أن يكون إلها إلا الواحد القهار.

﴿لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ﴾ أي: لايستجيبون دعاءهم ولا يسمعون نداءهم ، فلا تجلب لهم نفعا ولا تدفع عنهم ضرا [٢]، وقد عوملت هذه الأصنام معاملة العقلاء، وذلك استعمال شائع في كلام العرب، فقد كانوا يعاملون الأصنام معاملة العاقل، والباء في ﴿بِشَيۡءٍ﴾ لاستغراق النفي، وتنكير كلمة(شيء) جيء به لبيان عموم النفي، والمراد أنهم لا يستجيبون لهم بأي شيء من الاستجابة مهما صغر هذا الشيء فهم عاجزون عنهوهم أعجز عما فوقه[٣].

وقوله: ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ﴾ استثناء من مصدر محذوف، دل عليه (لا يستجيبون) ، والمعنى : إن هذه الآلهة التي يدعونها من دون الله لا تستجيب لهم بشيء من طلباتهم "إلا استجابة كائنة كاستجابة الماء لمن بسط كفيه إليه من بعيد، فالاستجابة مصدر من المبني للفاعل على ما يقتضيه الفعل الظاهر عني لا يستجيبون ، ويجوز أن يكون من المبني للمفعول ويضاف إلى الباسط بناء على استلزام المصدرُ من المبني للفاعل للمصدر

(١) - التحرير والتنوير ١٣/١٠٨.
(٢) - جامع البيان ١٦/ ٣٩٩، الجامع لأحكام القرآن ٩/ ٣٠٠.
(٣) - التحرير والتنوير ١٣/١٠٨، وزهرة التفاسير ٧/ ٣٩١٧.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

من المبني للمفعول وجودا وعدما، فكأنه قيل لا يستجيبون لهم بشيء فلا يستجاب لهم إلا استجابة كاستجابة من بسط كفيه إلى الماء"(١)

والمقصود بـ(باسط كفيه) هو من يغترف ماء بكفين مبسوطين غير مقبوضتين إذ الماء لا يستقر فيهما(٢).

وقوله:﴿لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾اللام للتعليل، والفاعل في ليبلغ ضمير عائد على الماء، وليبلغ متعلق بباسط.

﴿وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ نفى القرآن نفيا مؤكدا من عدم بلوغ الماء الفم باسمية الجملة، فعبر بالثبوت في الفعل (ليبلغ) ، وفي النفي بالاسم (ببالغه)، فنفى بذلك عنه البلوغ الثابت دائما(٣).

ثم يأتي التذييل في نهاية الآية بقوله:﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ فما وهكذا يذهب دعاء الكفار هباء ولا يكون منه إلا الخسارة والحسرة لهم، وقد قصر الموصوف وهو دعاء الكافرين على صفة الضلال ، والقصر جاء بطريق النفي والاستثناء وأسلوب الحصر يفيد التوكيد.

و﴿فِى﴾في قوله:﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾" للظرفية المجازية للدلالة على التمكن في الوصف، أي: إلا ضائع ضياعا شديدا"(٤) فدعاؤهم غارق في أودية الضلال .

---

(١) – إرشاد العقل السليم ١١/٥،ومدارك التنزيل وحقائق التأويل ١٤٧/٢، و البحر المحيط٦/ ٣٦٧.

(٢) – التحرير والتنوير ١٠٩/١٣.

(٣) – البحر المحيط٣٦٨/٦، ومعترك الأقران ٣٠٢/٣.

(٤) – التحرير والتنوير ١١٠/١٣.

فهذه الآية الكريمة تصور لنا في مشهد حسي حال هؤلاء الذين يدعون الآلهة والأصنام من دون الله بحال العطشان الهائم المندلع اللسان من شدة العطش ، و قد بسط كفيه في اتجاه الماء ، وتبدو عليه علامات البلاهة ، يدعو الماء ويرجوه أن يأتي إلى فمه ليروي ظمأه ، ويبقى على هذه الحال دون أن يتخذ ما يعينه في الوصول إلى الماء [١].

فاستجابة الماء لهذا الرجل العطشان الذي بسط يديه إليه أمر محال لا يمكن حصوله؛ فالماء جماد لا يحس ولا يعقل ، ولا يمكن أن يستجيب لدعوة من دعاه ! فكذلك حال هؤلاء المشركين في دعوتهم من لا يسمع ولا يرى !

وهذا من باب التعليق بالمحال،قيل: لايستجيبون لهم بشيء من الاستجابة كائنة في هذه الصورة والتي لا تظهر فيها شائبة الاستجابة قطعا [٢].

فالمشبه عقلي، والمشبه به حسي، والتشبيه تمثيلي لأن وجه الشبه منتزع من متعدد وهو عدم حصول الفائدة المرجوه في كل من صورة المشبه والمشبه به.

والعرب تضرب مثلا بالقابض على الماء لمن سعى فيما لا يمكن إدراكه ، ومن ذلك قول قيس:

فأصبحت من ليلى الغداة كقابضٍ على الماء خانته الأصابع[٣].

وفي هذا التمثيل تهكم بهم ، وإظهار لمدى بلاهتهم، وخيبة مساعاهم إذ "يرجون مطالب حياتهم مما اتخذوه شركاء لله، أو يرجون نجاتهم منهم،

(١) – أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع١٨٥.
(٢) – إرشاد العقل السليم ١١/٥.
(٣) – البيت لضابئ بن الحارث البرجمي، في مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٢٧.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وهم لا يجلبون لهم نفعا، ولا يدفعون عنهم ضرا ، فيقفون لشركائهم متوسلين داعين، ولا يتخذون الوسائل الحقيقية التي تنفعهم، فتنتهي قصة حياتهم بالخيبة، ويثبتون على أنفسهم أنهم كانوا بُلْهًا، وأنهم خسروا أنفسهم بحماقاتهم، كما فعل ذلك الأبله الظامئ إذ بسط كفيه إلى الماء داعيا ليبلغ فاه"[١].

فينفر القرآن الكريم من دعاء غير الله من خلال هذا التشبيه البياني التهكمي العجيب !

وعناصر هذا التمثيل تكونت من :رجل ظمآن ، وماء..

ولك أن تسأل : كيف جعل القرآن الكريم هذه المعبودات التي تعبد من دن الله مقابلة في هذا التشبيه للماء، والماء فيه نفع وحياة؟

وقد أجاب عن هذا التساؤل عبد الكريم الخطيب في تفسيره، ويمكن إيجاز ما قاله فيما يأتي:

أولا: إن المنظور إليه في هذا التشبيه هم هؤلاء العابدون الذين أشركوا بالله، لا المعبودات التي يعبدونها ، ففي هذا التشبيه ينكشف سفههم وحماقتهم، فهم والماء قريب منهم والظمأ يشوى أحشاءهم ،لا يعرفون لسفههم كيف ينالون منه حاجتهم، وحاجتهم إلى الماء شديدة، والوصول إليه ميسور، يهتدي إليه الحيوان بفطرته، ولكن هؤلاء أفسدوا فطرتهم، وعطلوا عقولهم فلم يكن لهم ما للحيوان الأعجم من حيلة، ولو كان المشبه به المقابل للمعبودات شيئا غير مرغوب ولا مطلوب، لما وقف القوم منه هذا

(١) – أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع ١٨٦.

الموقف الحريص المتلهف، ولما اشتد بهم الكرب حين طال وقوفهم عليه ثم لم ينالوا منه شيئا !

ثانيا: إن من بين هذه المعبودات التي اتخذها المشركون مافيه خير ونفع، كالملائكة ، وبعض الصالحين.

فالملائكة، وهؤلاء الصّالحون من عباد الله–ممن عبدهم الناس، أو اتخذوهم شفعاء لهم عنده– هم أشبه بهذا الماء، الذي فيه ري وحياة، وأنّ من يسلك سبيلهم، ويتأسّى بهم، ويرد موارد التقوى التي وردوها يجد الري لروحه، والحياة لقلبه.. ولكن المشركين لم يحسنوا التعامل معهم، والانتفاع بهم، فهلكوا، وطريق النجاة دان منهم، ماثل أمام أعينهم![1]

وحين نتأمل أول الآية ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ﴾ نجدها بينة واضحة تقطع كل أمل ورجاء في كل ما عبد من دونه سبحانه وتعالى، ولتأكيد هذا المعنى وترسيخه بأسلوب غير مختلف يرسخ في الأذهان جاء بقولة:﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾إنه مشهد محسوس لا تخطئه العين ولا يغيب عن الذهن أبدا، وحين نتأمل هذا المشهد بدقة نلحظ أنه مركب من عدة أشياء يمثل الماء العنصر الأساسي في هذه الصورة، ووجوده يحقق الغاية العظمى التي بني من أجلها هذا المشهد.

يقول القرطبي :"وفي معنى هذا المثل ثلاثة أوجه: أحدها– أن الذي يدعو إلها من دون الله كالظمآن الذي يدعو الماء إلى فيه من بعيد يريد تناوله ولا يقدر عليه بلسانه، ويشير إليه بيده فلا يأتيه أبدا، لأن الماء لا يستجيب، وما الماء ببالغ إليه، قاله مجاهد. الثاني– أنه كالظمآن الذي يرى

(١) – التفسير القرآني للقرآن ٨٧/٧.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

خياله في الماء وقد بسط كفه فيه ليبلغ فاه وما هو ببالغه، لكذب ظنه، وفساد توهمه، قاله ابن عباس. الثالث- أنه كباسط كفه إلى الماء ليقبض عليه فلا يجمد في كفه شي منه "(١).

ثم تأمل أخيرا في خاتمة هذه الآية ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ تجد بأنه ختام مجلجل؛ ليدرك الإنسان العاقل حقيقة هذا الأمر وليتنبه الغافل ويتوجه إلى الله القادر الذي له دعوة الحق بكل قلبه وجوارحه عندها يتحقق الأمل وتتمزق الخيبة ويذهب الخوف وينعم بالسعادة والخير اللذين لن يجدهما إلا عند الله الذي له دعوة الحق سبحانه وتعالى .

وهذا الختا يلتقي ويتلاءم تماما مع قوله:﴿ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾ فهو نوع مختلف من أنواع الضلال، يجنيه أولئك الذين بعدوا عن منهجه وتجنبوا سبيله، فتوهموا طريقا غير طريقه.

(١) - الجامع لأحكام القرآن ٣٠١/٩.

الخاتمة

وفي ختام هذا العمل والذي كان من أعظم ثماره ،ما أتاحه لي من العيش مع كتاب الله، والعمل على فهمه وتدبره، والكشف عن بعض وجوه إعجازه، أضع هنا في نهايته أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة :

- أن الماء في جميع التشبيهات في آيات الدراسة كان عنصرا مهما من عناصر تكوين الهيئة التي انتزع منها وجه الشبه.
- لما كان الماء أصل الحياة ، وأحواله متعددة ومن ذلك؛ أنه لا يستقر في موضع ولا يبقى على حال، ثم إنه يذهب ويفنى ، استعمله القرآن في كثير من التشبيهات وقد كان لها الأثر البارز في بيان الهيئة الجامعة بين طرفي التشبيه.
- يلحظ كذلك تعدد وجه الشبه عند التشبيه، فتارة يأتي للدلالة على الاضطراب، وتارة عدم الانتفاع، وتارة سرعة الزوال وغيرها من الأحوال بما يتناسب مع حال المشبه ومقام التشبيه عامة.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، تفسير أبي السعود، أبوالسعود العمادي، دار إحياء التراث العربي بيروت.
- أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه: محمود شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة.
- الإعجاز البلاغي، دراسة تحليلية لتراث أهل العلم، د/محمد محمد أبو موسى ،مكتبة وهبة شارع الجمهورية عابدين القاهرة،ط٤، ١٤٣٣ه ،٢٠١٢م.
- بحر العلوم ، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي.
- البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر بيروت،ط١٤٢٠ ه.
- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب ، ط١٧، ١٤٢٦ه،٢٠٠٥م.
- التحرير والتنوير، ،محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية، ١٩٨٤ه.
- تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)، ناصر الدين البيضاوي، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت،ط١، ١٤١٨ هـ.
- تفسير القاسمي (محاسن التأويل)، القاسمي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية بيروت،ط١، ١٤١٨ه.
- تفسير القرآن الكريم، لابن القيم، تحقيق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان، دار ومكتبة الهلال – بيروت ، ط١ ،١٤١٠ه.

- التفسير القرآني للقرآن عبدالكريم الخطيب، دار الفكر العربي، القاهرة.
- تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي، تحقيق يوسف علي بديوي، دار الكلم الطيب، بيروت،ط١ ،١٤١٩ هـ ، ١٩٩٨ م.
- التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة القاهرة،ط١.
- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن. الرماني والخطابي، عبد القاهر الجرجاني ،في الدراسات القرآنية والنقد الأدبي ، تحقيق: وعلق عليه محمد خلف الله احمد، د/محمد زغلول سلام، دار المعارف القاهرة،ط٥، ٢٠٠٨م.
-جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، المحقق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة،ط١٤٢٠،١،٥،٢٠٠٠م.
- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية ، القاهرة، ط ٢، ١٣٨٤هـ ،١٩٦٤ م.
- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي، ضبط وتدقيق وتوثيق: د/ يوسف الصميلي، المكتبة العصرية ،بيروت.
- حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي، ضبط وتصحيح محمد عبد القادر شاهين، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط١، ١٤١٩ه، ١٩٩٩م.
- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية،(رسالة دكتوراه بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى) عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني، مكتبة وهبة،ط١،١٤١٣ هـ ،١٩٩٢م.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

- دراسات في علوم القرآن – فهد الرومي، دراسات في علوم القرآن الكريم، أ. د/ فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، حقوق الطبع محفوظة للمؤلف،ط١٢، ١٤٢٤هـ ، ٢٠٠٣م.
- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر أبو فهر، مطبعة المدني بالقاهرة ، دار المدني بجدة،ط٣، ١٤١٣هـ ،١٩٩٢م.
- روح المعاني، شهاب الدين الألوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية بيروت،ط١، ١٤١٥هـ.
- زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي ، بيروت، ط ١،١٤٢٢ه.
- صحيح مسلم (المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم) ،لمسلم بن الحجاج النيسابوري، المحقق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار احياء التراث العربي، بيروت.
- غرائب القرآن ورغائب الفرقان، النيسابوري، تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية بيروت،ط١، ١٤١٦ه.
- فتح القدير للشوكاني، محمد على بن علي الشوكاني، دار ابن كثير ، دار الكلم الطيب، دمشق بيروت،ط١، ١٤١٤ه.
- كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العنصرية بيروت،١٤١٩ه.
- الكشاف، الزمخشري، دار الكتاب العربي ،بيروت،ط ٣،١٤٠٧هـ.
- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤ه.

- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير، المحقق أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة القاهرة.
- مفاتيح الغيب، فخرالدين الرازي، دار إحياء التراث العربي،بيروت،ط٣، ١٤٢٠ه.
- المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهانى، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية ،دمشق بيروت،ط١، ١٤١٢ه.
- مفتاح العلوم، أبو يعقوب السكاكي، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان،ط٢،١٤٠٧ هـ، ١٩٨٧م.
- مواهب الفتاح ،لابن يعقوب المغربي لجلال الدين القزويني، تحقيق: د/عبدالحميدهنداوي،المكتبة العصرية، صيدا ، بيروت،ط١، ١٤٢٦ه،٢٠٠٦م.
- نظم الدرر البقاعي في تناسب الآيات والسور، البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
- وظيفة الصورة الفنية في القرآن، عبد السلام أحمد الراغب، فصلت للدراسات والترجمة والنشر ،حلب،ط١، ١٤٢٢هـ ،٢٠٠١ م.

الرسائل العلمية:

- وجه الشبه في القرآن الكريم تنوعات وإيحاءاته، من أول سورة البقرة إلى آخر سورة الإسراء، أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في البلاغة والنقد، ناصر بن مسفر الزهراني، إشراف الأستاذ الدكتور عبد العظيم المطعني، جامعة أم القرى، ١٤١٨ه.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	الصفحة
١.	ملخص	٨١٣١
٢.	Abstract	٨١٣٢
٣.	المقدمة	٨١٣٣
٤.	التمهيد	٨١٣٦
٥.	المبحث الأول: وجه الشبه بين المنافقين والماء.	٨١٤١
٦.	المبحث الثاني: وجه الشبه بين الحياة الدنيا والماء.	٨١٤٩
٧.	المبحث الثالث: وجه الشبه بين الحق والباطل والماء.	٨١٦٠
٨.	المبحث الرابع: وجه الشبه بين أعمال الكفار والماء.	٨١٦٨
٩.	المبحث الخامس: وجه الشبه بين عجز الأولياء عن إجابة الدعاء والماء.	٨١٧٩
١٠.	الخاتمة	٨١٨٧
١١.	ثبت المصادر والمراجع.	٨١٨٨
١٢.	فهرس الموضوعات	٨١٩٢

تم بحمد الله